

الفصل الثالث

ميزان القوى والحرب العالمية الاولى

غالبا ما تلقى مسؤولية حدوث الحرب العالمية الاولى على عاتق "ميزان القوى" أحد أوسع مبادئ السياسة الدولية استعمالا وأشدّها ارباكا في الوقت ذاته. فالمصطلح فضفاض يستعمل لتبرير كل الاشياء، وقد وصفه فيلسوف القرن الثامن عشر البريطاني (ديفيد هيوم) David Hume بأنه قاعدة ثابتة للسياسة الحكيمة ولكن المفكر الليبرالي البريطاني في القرن التاسع عشر (ريتشارد كوبدن) Richard Cobden وصفه بأنه "وهم وشيء يستعصي على الوصف والفهم". وشعر وودرو ولسون Woodrow Wilson الرئيس الامريكى أيام الحرب العالمية الاولى بأن ميزان القوى مبدأ شرير لأنه شجع زعماء الدول على التعامل مع الأمم كأنها قطع جبن تقطع بما يلائم أغراضهم السياسية دون اعتبار للشعوب. كذلك كره ولسون ميزان القوى لاعتقاده بأنه يسبب الحروب فيما يرى المدافعون عن سياسة توازن القوى أنها تحقق الاستقرار غير ان الاستقرار والسلام أمران مختلفان تماما. فطوال خمسة قرون، هي عمر نظام الدولة ال أوروبي، اشتبكت الدول الكبرى في ١١٩ حربا كان السلام شيئا نادرا خلالها. وعلى مدى ثلاثة ارباع المدة كانت الحروب مستمرة وكانت دولة كبرى على الاقل منخرطة فيها. وكانت تسع من تلك الحروب كبيرة وعامة (أي استيلائية أو حروبا عالمية) وشارك فيها أكثر من دولة كبرى، فاذا سألنا هل كان ميزان القوى يخدم السلام جيدا على امتداد القرون الخمسة من عمر نظام الدولة الحديثة، بكل تأكيد يكون الجواب بالنفي.

ليس هذا غريبا أو مفاجئا لأن الدول لا توازن قواها لصيانة السلام بل لتأمين استقلالها فميزان القوى يساعد في المحافظة على نظام الدول المنفصلة الفوضوي، لكنه لا يشمل كل دولة. مثال على ذلك ان بولندا Poland قطعت أو توزعت حقا في نهاية القرن الثامن عشر بين جيرانها: النمسا وبروسيا وروسيا مثل قطعة جبن كما وصفها وودرو ولسون. وفي الماضي القريب

وتحديدا في عام ١٩٣٩ عقد ستالين وهتلر صفقة لاقتسام بولندا مرة ثانية واعطيت دول البلطيق للاتحاد السوفيتي وهكذا انفقت ليتوانيا Lithuania ولاتفيا Latvia واستونيا Estonia نصف قرن من حياتها كجمهوريات سوفيتية حتى عام ١٩٩١. ان ميزان القوى لم يحفظ السلام ولن يحفظ إستقلال كل دولة دائما بل حافظ على نظام الدولة الفوضوي.

القوة:

لكي نفهم معنى التوازن فعلينا ان نبدأ من القوة، ما هي القوة؟ وما هي أشكالها؟ يمكنني ان اقول ان القوة كالحب أسهل عليك ان تعيشها من ان تعرفها أو تقيسها. ان القوة هي قدرة المرء على تحقيق أغراضه أو اهدافه. ويقول القاموس أنها القدرة على فعل الاشياء والسيطرة على الاخرين. ويعرف روبرت دال Robert Dahl استاذ العلوم السياسية في جامعة ييل Yale ، القوة بالقدرة على جعل الاخرين يفعلون ما لايفعلونه عادة. ولكن حين نقيس القوة بمقياس السلوك المتغير لدى الاخرين فعلينا ان نعرف أفضلياتهم والا قد نكون مخطئين في تقدير قوتنا. فمن الصعب ان تعرف كيف يتصرف الناس أو الدول دون معرفة مدى قوتهم أو قوتها. ان التعريف الكلاسيكي للقوة يمكن ان يفيد المحللين والمؤرخين الذي ينفقون وقتا طويلا في إعادة تشكيل الماضي لكنه غالبا ما يبدو سريع الزوال في نظر السياسيين والزعماء العاملين. ولما كانت قدرة السيطرة على الاخرين ترتبط بامتلاك وسائل معينة فان الزعماء السياسيين يعرفون القوة بهذه الطريقة. وتشمل هذه الوسائل السكان والارض والموارد الطبيعية والحجم الإقتصادي يجعل القوة تبدو أشد رسوخا وقابلية للقياس والتنبؤ من التعريف السلوكي. فالقوة في هذا الاطار تعني الامسك بالأوراق الأقوى في لعبة البوكر الدولية. والتي من قواعدنا ان تطوي يدك أو ان لا تبدأ اللعبة أصلا اذا ادركت ان غريمك يحوز على اوراق رابحة.

و مع هذا فبعض الحروب بدأها من خسرنا في النهاية مايعني ان الزعماء السياسيين يغامرون أو يخطئون أحيانا فاليابان عام ١٩٤١ والعراق عام ١٩٩٠ مثالان على ذلك. فغالبا يبقى الغريم في لعبة السياسة الدولية بعض أوراقه مستورة كما في لعبة البوكر ويمكن للمهارة كالتموه والخداع ان تأتي بنتائج مغايرة. وحتى في غياب الخداع يمكن الوقوع في خطأ تقدير أي الوسائل هي

الأوثق صلة بهذا الوضع أو ذلك. مثال على ذلك ان فرنسا وبريطانيا كانت لديهما دبابات اكثر من هتلر في عام ١٩٤٠ لكن كانت لدى هتلر قدرة على المناورة واستراتيجية عسكرية أعظم منهما.

ان تحويل القوة مشكلة أساسية تبرز حين نفكر بالقوة على اساس مصادرها الاساسية وبعض البلدان أفضل من غيرها في تحويل مصادر قوتها الى تأثير فعال وتاماً كما يفعل لاعب البوكر البارح حين يكسب الرهان بأوراق ضعيفة. فتحويل القوة هو القدرة على تحويل القوة الكامنة، محسوبة في مصادرها، الى قوة ملموسة. لذا علينا ان نعرف ما هي مهارة بلد ما في تحويل القوة وكذلك امتلاكه وسائل القوة لكي نتنبأ بشكل صحيح.

المشكلة الأخرى هي في تحديد المصادر التي توفر أفضل أساس للقوة، في السابق كان التوصل الى معرفة مصادر القوة أمراً سهلاً وليس معقداً كما هي الحال اليوم، مثلاً في إقتصاد أوروبا القرن الثامن عشر كان عدد السكان مصدر قوة حاسم لأنه يوفر الأساس لجباية الضرائب وتجنيد المحاربين وبفضل عدد السكان هيمنت فرنسا على أوروبا الغربية لذا نجد بروسيا، في ختام الحروب النابليونية، تقدم لزملائها المنتصرين في مؤتمر فيينا خطة دقيقة لإعادة بنائها كي لا تحافظ على توازن القوى وضمت الخطة السكان والاراضي التي خسرتها منذ عام ١٨٠٥ والاراضي والسكان الذين تحتاجهم لاستعادة ارقام التوازن العددي المطلوب. ففي الفترة السابقة لظهور النزعة القومية لم يكن أحد يهتم كثيراً بعدد الناس الذين لا يتكلمون الألمانية أو لا يعتبرون أنفسهم ألماناً في تلك الاقاليم. ولكن بعد نصف قرن صارت المشاعر القومية تعني الكثير. والتغير الاخر الذي حصل خلال القرن التاسع عشر هو تنامي أهمية الصناعة ونظم السكك الحديد التي جعلت التعبئة اسرع من ذي قبل بكثير.

ففي الستينات كانت ألمانيا بسمارك الرائدة في استعمال السكك الحديد لنقل الجيوش الى حيث تحقق انتصارات سريعة. ومع ان روسيا كانت دائماً أكبر تعداداً سكانياً من بقية الدول الوروبية فقد كانت الأبطأ في التعبئة. فكان تنامي نظام السكك الحديد في روسيا الغربية، بداية القرن العشرين، أحد اسباب خوف الالمان من تصاعد قوة روسيا عام ١٩١٤. وبناءً على هذا جاء

انتشار خطوط السكك الحديدية في القارة الأوروبية ليحرم بريطانيا من ترف التركيز على القوة البحرية. فلم يعد هناك متسع من الوقت، ان كان ضروريا أساسا، لزرع جيش هنا وهناك لمنع دولة كبرى أخرى من الهيمنة على القارة.

ليس جديدا ان نؤكد ما لأستخدام التكنولوجيا الصناعية في الحرب من تأثير هائل. فقد أصبحت العلوم والتكنولوجيا المتطورة خاصة مصادر قوة خطيرة منذ بداية العصر النووي عام ١٩٤٥، لكن القوة المستمدة من الاسلحة النووية لها من التأثير التدميري والارهابي الهائل ما جعل استعمالها امرا عسيرا وبالغ الخطورة. فالحرب النووية باهظة التكاليف ويمكن القول هنا، بقدر أكبر من التعميم، ان هناك حالات كثيرة يكون استعمال القوة فيها أمرا غير مناسب أو باهظ التكاليف.

ان القوة العسكرية ما زالت تلعب دورا مهما من وراء الستار حتى مع وجود المنع لاستعمال القوة بين مجموعة من الدول. مثل ذلك ان دور القوات العسكرية الامريكية في ردع أي تهديد لحلفائها أو تأمين الوصول لمصدر حيوي كنفط الخليج العربي يعني ان توفير القوة الواقية يمكن استعماله كعامل للمساومة في بعض الحالات وقد تكون العلاقة مباشرة احيانا.

يضاف الى ذلك ان هناك اعتبارا يدعى احيانا (الوجه الثاني للقوة) أي جعل دول أخرى تتغير أو تغيير مواقفها ويطلق عليه طريقة مباشرة أو قاهرة في ممارسة القوة. ومثل هذه القوة "الشديدة" تقوم على مبدأي: الترغيب (الجزرة) أو التهديد (العصا). واستخدم الامريكان هذه السياسة في فترات مختلفة وقد ساعدتهم الى حد ما في حفظ توازن القوى في العالم. ولكن هناك أيضاً طريقة لينة أو غير مباشرة لممارسة القوة. فقد يحقق بلد الحصيلة المفضلة في السياسة العالمية لأن البلدان الأخرى تريد ان تتبعه أو توافق على نظامه اللين. بهذا المعنى فان وضع جدول أعمال وهيكله المؤسسات في السياسة العالمية ليست بأقل أهمية من جعل الاخرين يتغيرون في حالات معينة. هذا الوجه من القوة - أي جعل الاخرين يريدون ما تريد - يمكن أن يدعى روح زمالة أو سلوك قوة لين. ويعتمد اظهار القوة اللينة على مصادر كاجتذاب آراء الاخرين أو القدرة على وضع جدول الأعمال السياسي بالشكل الذي يصوغ ما يعتبره الاخرين من الأفضليات. أن

آباء المراهقين يعرفون أنهم اذا زرعوا لدى ابنائهم قدرة اختيار المعتقدات والافضليات وتكون حقوقهم اكبر واطول عمرا مما لو اعتمدوا اسلوب السيطرة النشطة فحسب. كذلك أدرك القادة السياسيون الفلاسفة منذ زمن بعيد طبيعة القوة المتأتية من وضع جدول عمل وتحديد أطار أي نقاش. فالقابلية على تأسيس الافضليات تميل الى الاقتران بمصادر قوة غير بينة كالثقافة والأيديولوجيا والمؤسسات.

فما هي أهم مصادر القوة في الوقت الحاضر؟ ان نظرة الى القرون الخمسة - عمر نظام الدولة الحديثة - ترينا ان مصادر قوة مختلفة لعبت أدوارا خطيرة في فترات مختلفة ، فمصادر القوة ليست ثابتة وهي تتغير باستمرار في عالمنا الحالي (انظر الى الجدول التالي).

الدول الكبرى وأهم مصادر القوة

القرن	الدولة الكبرى	المصادر الرئيسية للقوة
١٦	اسبانيا	الذهب، التجارة الاستعمارية، جيوش المرتزقة، الصلات مع العائلات المالكة.
١٧	هولندا	التجارة، أسواق رأس المال، البحرية
١٨	فرنسا	الكثافة السكانية، الصناعة الريفية، الادارة العامة، الجيش.
١٩	بريطانيا	الصناعة، التجارة، المالية، القوانين الليبرالية، سهولة الدفاع عنها.
٢٠	USA	حجم النمو الإقتصادي، الزعامة العلمية و التكنولوجية، الثقافة العالمية، القوة العسكرية والاحلاف، الأنظمة الليبرالية الدولية، التطور الكبير في الاتصالات بين الأمم وتكنولوجيا الإعلام.

في عصر إقتصاد يقوم على الإعلام والاعتماد المتبادل بين الدول اصبحت القوة أقل استجابة للنقل وأقل وضوحا واكل قسرا، ومع ذلك فتحول القوة غير مكتمل، فالقرن الحالي (الحادي والعشرون) سيرى، بالتأكيد دورا أكبر للقوة الإعلامية والمؤسسية، ولكن ستبقى القوة العسكرية عاملا مهما كما رأينا في حرب الخليج عام ١٩٩١ ، كذلك سيبقى المدى الإقتصادي على صعيد

الاسواق والمصادر الطبيعية مهما هو الاخر . ومع نمو قطاع الخدمات ضمن الإقتصاد الحديث ستستمر امكانية التمييز بين الخدمات وصناعة السلع . سيزيد الإعلام كما والمصدر الحاسم هو القدرة التنظيمية على الاستجابة بسرعة ومرونة وسيظل التماسك - أو الالتحام - السياسي مهما، وكذلك الحال مع الثقافة الشعبية العالمية.

ان صعوبة قياس تغير مصادر القوة مشكلة كبيرة أمام رجال الدولة - المسؤولين - وهم يحاولون تقييم ميزان القوى. ويرى محللو السياسة الدولية ان استعمال الكلمة نفسها في أمور مختلفة يزيد الأمر إرباكاً. فليتنا ان نزل ونوضح المضامين التي تنشأ عن الاستعمال السائب لنفس الكلمات وان عبارة "ميزان القوى" تشير الى ثلاثة أشياء مختلفة على الأقل.

الموازن كتوزيعات للقوة:

ميزان القوى يمكن ان يعني، في المقام الأول، توزيع القوة وتحديد مالكي مصادر القوة؟ بعض الناس يستعمل مصطلح "ميزان القوى" كناية عن الوضع الراهن، أي توزيع القوى القائم. لذا ذهب بعض الامريكيين في الثمانينات الى القول بأن ميزان القوى كان سيتغير لو كانت نيكاراكتوا أصبحت دولة شيوعية. مثل هذا الاستعمال للمصطلح لا ينم عن وضوح كبير. فاذا غيرت دولة صغيرة ولاءها فقد يغير هذا قليلاً من توزيع القوة القائم لكنه سيكون تغيراً يسيراً جداً لا يعطينا معلومات كافية عن التغيرات الأعمق التي تجري في السياسة العالمية.

طريقة أخرى في استعمال المصطلح هي الإشارة الى سياق خاص (ونادر جداً) من الحالات يكون توزيع القوة فيه متساوياً. هذا الاستعمال يستحضر في الذهن صورة مدرج أوزان أو توازنات. ان بعض الواقعيين يقولون بأن الاستقرار يتحقق حين يكون هناك توازن متكافئ للقوة، فيما يرى آخرون أن الاستقرار يتحقق حين يملك أحد الاطراف من القوة ما يجعل الآخرين لا يجرؤون على مهاجمته. وتقول نظرية السيادة ان القوة غير المتوازنة تحقق السلام. فحين تأخذ تلك الدولة بالضعف ويبرز متحد جديد تزداد احتمالات اندلاع حرب. لنرجع الى تفسير ثوسايدس لقيام الحرب البيلوبونيزية: تنامي قوة أثينا وما أثاره من خوف لدى سبارطة يتماشى مع نظرية انتقال السيادة وهذا يصح على الحرب العالمية الأولى كما سنرى في ما بعد. انما علينا ان نتعامل مع

نظريات كهذه بحذر لأنها تميل الى المبالغة في التنبؤ بالصراعات. في الثمانينات من القرن التاسع عشر تجاوزت الولايات المتحدة بريطانيا العظمى كأكبر إقتصاد في العالم. وفي عام ١٨٩٥ نشب خلاف بين الولايات المتحدة وبريطانيا حول حدود في امريكا الجنوبية ولاحت علائم حرب في الأفق. كان هناك متحد آخذ بالظهور، دولة سيده قديمة، وبرزت اسباب للتصادم ولكنها لم تحصل. فنحن يمكن ان نستخلص مؤشرات مهمة لحل الغواص من كلاب لا تنبج على حد تعبير شارلوك هولمز Sherlock Holmes. فغياب الحرب في هذه الحالة يقودنا الى البحث عن أسباب أخرى وهنا يشير الواقعيون الى ان صعود نجم ألمانيا كان تهديدا أشد الحاحا لبريطانيا. بينما يرجع الليبراليون عدم اندلاع الحرب الى ازدياد الحس الديمقراطي في البلدين والى الروابط الثقافية بين القائد السابق والمتحدي الجديد. وأفضل ما نستخلصه عن ميزان القوى في المقام الأول هو ان توزيع القوة غير المتكافئ بين الدول الكبرى قد يكون عاملا، وان لم يكن العامل الوحيد، لتفسير نشوب الحرب وعدم الاستقرار.

سياسة توازن القوى:

الاستعمال الثاني للمصطلح يشير الى توازن القوى كسياسة توازن بين الدول. فميزان القوى يتنبأ بأن الدول تتحرك لمنع اية دولة من امتلاك ارجحية بالقوة بمفردها. هذا التنبؤ يمتد عميقا في التاريخ، فقد قال اللورد بلمرستن Palmerston Lord ، وزير خارجية بريطانيا في عام ١٨٤٨ "ان بريطانيا ليس لها صديق دائم ولا عدو دائم، بل مصلحة دائمة". ولم يكن السير ادوارد كري Sir Edward Grey وزير خارجية بريطانيا عام ١٩١٤ يريد الذهاب الى الحرب لكنه فعل ذلك في نهاية الامر لأنه خشي ان تمتلك ألمانيا أرجحية القوة في أوروبا بهيمنتها على القارة. وحين غزا هتلر الإتحاد السوفيتي عام ١٩٤١ قال رئيس الوزراء البريطاني ونستون تشرشل Winston Churchill ان على بريطانيا ان تتحالف مع ستالين الذي كانت

تناصبه العداة قبل بضع سنوات. وقال تشرشل: "اذا غزا هتلر جهنم فأقل ما أفعله هو ان أزكي ابليس أمام مجلس العموم"^(١). هذه أمثلة جيدة على جعل توازن القوى سياسة واضحة.

ان التنبؤ بسلوك كهذا يقوم على فرضيتين اساسيتين:

١. بنية السياسة الدولية في نظام دول فوضوي.

٢. الدول تقدر استقلالها فوق كل شي*.

فسياسة توازن القوى لافتترض بالضرورة ان تعمل الدول على زيادة قوتها الى حد أقصى، فقد تختار الانضمام الى الركب أو المركبة، بمعنى أنها تلتحق بالاقوى وتشارك المنتصر غنائمه. وطريقة الانضمام الى الركب هذه شائعة في السياسة الداخلية، حيث يتحلق السياسيون حول من تبدو فرص فوزه الاقوى. غير ان الانضمام الى الركب في السياسة الدولية يحمل في ثناياه خطر فقدان الاستقلال. ففي عامي ١٩٣٩ و ١٩٤٠ انضم موسوليني الى هتلر في الهجوم على فرنسا، طمعا في الحصول على بعض الأسلاب، لكن إيطاليا وقعت في فخ التبعية لألمانيا أكثر فأكثر حتى ضاعت في النهاية. لذلك تقول سياسة توازن القوى: "انضم الى الأضعف". ان توازن القوى سياسة يراد بها مساعدة التابع الضعيف لأنك اذا ساعدت السيد القوي فقد ينقلب عليك ويفترسك في نهاية الامر.

تستطيع الدول ان تحاول تحقيق توازن القوى على انفراد بتطوير سلاحها أو اقامة تحالف مع الدول الأخرى التي تساعد مصادر قوتها على تحقيق التوازن مع الدولة السائدة. هذه واحدة من أهم وأقوى التنبؤات في السياسة الدولية وظروف منطقة الشرق الاوسط الحالية خير مثال على ذلك. فحين دخل صدام حسين الحرب في أوائل الثمانينات (١٩٨٠ - ١٩٨٨) ظن بعض المراقبين ان كافة الدول العربية، بدون استثناء، ستدعم عراق ضد ايران آية الله الخميني التي تمثل الثقافة الفارسية وأقلية الفكر الشيعي في الاسلام لكن سوريا اصبحت حليفة لايران رغم ان زعيمها كان رجلاً علمانياً من حزب البعث (نفس الحزب الذي يحكم العراق)، فلماذا فعلت

(١) حديث رئيس الوزراء البريطاني Winston churchill في ٢٢ حزيران ١٩٤١ مع سكرتيره الخاص كولفين Colvine في كتاب (تشرشل يتكلم) أعداد روبرت رودس جيمس Robert James. دار تشيلس ، نيويورك ، ١٩٨٠.

سوريا ذلك؟ لأنها كانت خائفة من تنامي قوة جارها العراق في العالم العربي، فأختارت ان توازن القوة العراقية بصرف النظر عن افضلياتها الأيديولوجية. فغالبا ما يخطيء استعمال الأيديولوجيا كمرشد للتنبؤ بسلوك الدول في حين يصيب الحدس المعاكس في التنبؤ بحركة توازن القوى في أغلب الاحيان. طبعاً هناك استثناءات كثيرة عن هذه القاعدة فالسلوك البشري لا يمكن تحديده كلياً. فللبشر خيارات وتصرفات قد لا تتوافق مع ما هو متوقع دائماً. فثمة حالات تدفع الناس الى نوع معين من التصرف. مثلاً لو صاح شخص في قاعة مكتظة بالناس: "حريق، حريق!!!" يمكننا ان نتوقع ان الناس يتزاحمون على الابواب ولكننا لانقدر على تحديد أي باب من الابواب. فاذا اختار الجميع باباً واحدة فقد تحول الفوضى دون خروج الكل. لذلك ان نظريات السياسة الدولية تطرح استثناءات كبيرة في الغالب. وصحيح ان ميزان القوى من حيث رسم سياسة ما، احدى أقوى وسائل التنبؤ في السياسة الدولية، الا ان سجله في هذا الباب بعيد عن الدقة.

لماذا تتحاشى الدول في بعض الاحيان توازن القوى فتنضم الى الجانب الاقوى وليس الجانب الاضعف أو تقف جانبا مخاطرة بذلك باستقلالها؟ بعض الدول قد ترى ان لا خيار لها أو تعتقد بأنها لاتستطيع التأثير في الميزان. فاذا كان الأمر هكذا فقد يقرر بلد صغير الارتقاء في نطاق نفوذ دولة عظمى بينما يأمل أن يؤمن الحياد له شيئاً من حرية التحرك. مثال على ذلك ان فنلندا هزمت بعد الحرب العالمية الثانية على يد الإتحاد السوفيتي ورغم ذلك فإنها شعرت بأن الحياد أسلم لها من محاولة الالتحاق بميزان القوى الأوروبي. كانت فنلندا ضمن نطاق النفوذ السوفيتي وان أفضل شيء يمكن ان تفعله هو التخلي عن استقلالها في السياسة الخارجية مقابل قدر كبير من حرية التصرف بشؤونها الداخلية.

السبب الاخر لجعل تنبؤات ميزان القوى مغلوطة في بعض الاحيان يتعلق باستبصار التهديد. مثال على ذلك ان الحساب الآلي لمصادر قوة البلدان عام ١٩١٧ تنبأ بأن الولايات المتحدة تنضم الى ألمانيا في الحرب العالمية الاولى لأن بريطانيا وفرنسا وروسيا تملك ٣٠٪ من المصادر الصناعية في العالم في حين لا تملك ألمانيا والنمسا سوى ١٩٪. فلم يحصل هذا لأن بصيرة الامريكان قالت

لهم ان الالمان أقوى عسكريا وهم المعتدون في الحرب ولأن الالمان قللوا من شأن الطاقة العسكرية الامريكية.

ان استبصار التهديد يتأثر في أغلب الاحيان بمدى قرب التهديد أو بعده. فقد يكون أحد الجيران ضعيفا بالمقياس العالمي المجرد لكنه يشكل تهديدا في منطقتة. لتأمل موضوع بريطانيا والولايات المتحدة في تسعينات القرن التاسع عشر. كان بأستطاعة بريطانيا ان تحارب لكنها اختارت ان تسترضي الولايات المتحدة وتنازلت عن أشياء كثيرة بما في ذلك بناء قناة بنما التي اتاحت للولايات المتحدة تحسين وضعها البحري. ان احد أسباب الموقف البريطاني هو ان بريطانيا كانت قلقة من ناحية جاريتها ألمانيا اكثر من الامريكان البعيدين. صحيح ان الولايات المتحدة تفوق ألمانيا حجما ولكن مسألة القرب أو البعد هي التي حددت منشأ التهديد في نظر البريطانيين.

و مسألة القرب أو البعد هذه تفسر التحالفات بعد عام ١٩٤٥. كانت الولايات المتحدة أقوى من الإتحاد السوفيتي فلماذا لم تتحالف أوروبا واليابان معه ضد الولايات المتحدة؟ الجواب على هذا السؤال يكمن جزئيا في مسألة قرب التهديد أو بعده. فقد كان السوفييت في نظر أوروبا واليابان تهديدا مباشرا بينما الولايات المتحدة بعيدة. فدعى اليابانيون والأوروبيون الدولة الكبرى البعيدة لإعادة التوازن مع جارهم المباشر. ان حقيقة كون مسألة البعد أو القرب تؤثر غالبا في كيفية النظر الى التهديد ترجح أية تنبؤات تقوم على احصاء آلي بسيط لمصادر القوة.

الاستثناء الاخر في تنبؤات ميزان القوى يتعلق بالدور المتزايد للاعتماد الإقتصادي المتبادل في الشؤون العالمية. ان سياسة توازن القوى تقتضي ان لا يحبذ الفرنسيون نمو ألمانيا لكن الآندماج الإقتصادي يجعل نمو الألماني شرطا للنمو الفرنسي. ثم ان فرصة إعادة انتخاب السياسيين الفرنسيين في حالة النمو الإقتصاد في زمنهم ستكون اكبر. لذلك يغدو من الحماقة انتهاج سياسة تقييد لنمو الإقتصاد الألماني لأن إقتصاد البلدين على درجة كبيرة من الاعتماد المتبادل. ففي الاعتبار الإقتصادية غالبا ما تكون هناك مكاسب مشتركة قد تضيع بالافراط في انتهاج سياسة توازن قوى ساذجة.

البنية السياسية قبل الحرب العالمية الاولى

ميزان القوى

تعددية قطبية سائبة	١٨٧٠ -	١٨١٥
صعود نجم ألمانيا	١٩٠٧ -	١٨٧٠
احلاف ثنائية الاقطاب	١٩١٤ -	١٩٠٧

أخيرا فان الأيديولوجيات تجعل الدول أحيانا تلحق باصحاب السطوة بدل الضعاف. حتى في أيام ثوسايديدس نجد دول المدن الديمقراطية أميل للانحياز الى أثينا والاوليغاركية الى سبارطة. ان استرضاء بريطانيا الولايات المتحدة في تسعينات قرن التاسع عشر او انضمام الأوروبيين الى امريكا في تحالف بعد عام ١٩٤٥ يدين بعض الشيء الى التأثير الأيديولوجي والى قرب التهديد أو بعده أيضاً. من ناحية اخرى علينا ان لانعتمد كثيرا على التنبؤات المرتبطة بالايديولوجيات لأنها كثيرا ما تؤدي الى أخطاء فادحة. فالعديد من الناس كانوا يعتقدون بأن ستالين وهتلر لايمكن ان يتقاربا كما حصل في عام ١٩٣٩ لأنهما كانا على طرفي نقيض من تشكيل الطيف الايديولوجي. لكن اعتبارات توازن القوى قادتهما الى التحالف ضد الدول التي تقف في وسط الطيف الايديولوجي. وكذا الحال في الستينات من قرن العشرين أخطأت الولايات المتحدة في التعامل مع الصين والإتحاد السوفيتي وفيتنام وكمبوديا على حد سواء لانها جميعا دول شيوعية. ان سياسة مبنية على توازن القوى كان عليها ان تدرك ان تلك الدول الشيوعية لايد ستوازن في ما بينها (وهذا ما حصل في النهاية) الامر الذي ما كان ليكلف كل تلك الخسائر لتحقيق الاستقرار في الشرق الاقصى.

توازن القوى كأنظمة متعددة الاقطاب:

الطريقة الثالثة التي يستعمل فيها مصطلح "ميزان القوى" هي لبيان حالات التعددية القطبية تاريخيا. تعتبر أوروبا القرن التاسع عشر احيانا نموذجا لميزان القوى متعدد الاقطاب المعتدل. ان المؤرخين مثل (ادوارد كوليكر) Edwa Gulick يستعملون مصطلح "ميزان القوى الكلاسيكي" كناية عن النظام الأوروبي في القرن التاسع عشر. بهذا المعنى يتطلب ميزان القوى وجود عدة دول، خمس أو ست عادة ، تتبع نسقا من قواعد اللعبة مفهوما على وجه العموم. ولما كان استعمال مصطلح "ميزان القوى" يشير الى الأنظمة التاريخية فاننا ننظر الى بعدي الأنظمة. ونعني بهما "البنية" و"عملية التكوين" اللذين تناولناهما بالبحث في الفصل الثاني. صحيح ان نظام ميزان القوى متعدد الاقطاب، في القرن التاسع عشر، حقق أطول فترة بلا حرب عالمية في تاريخ نظام الدولة الحديثة: من ١٨١٥ الى ١٩١٤ - انما علينا ان لا نضفي صورة رومانتيكية على المسألة أو نبالغ في تبسيط قصة معقدة.

لقد تغيرت بنية ميزان قوى القرن التاسع عشر الأوروبي عند نهايات القرن. ففي الفترة من ١٨١٥ الى ١٨٧٠ كانت هناك خمس دول كبرى تغير تحالفاتها باستمرار للحيلولة دون هيمنة واحدة منها على القارة. وبين عامي ١٨٧٠ و١٩٠٧ صارت هناك ست دول كبرى، بعد توحيد ألمانيا وإيطاليا ولكن تعاضم قوة ألمانيا قاد الى المشاكل التي أدت في نهاية الى زوال النظام. وقد رأينا من قبل ان الفترة ١٩٠٧ - ١٩١٤ شهدت قيام تحالفين تحولا الى كتلتين متشدتين تفتقران الى المرونة الامر الذي ساهم باندلاع الحرب العالمية الاولى.

اما بالنسبة لعملية التكوين فينقسم نظام توازن القوى في القرن التاسع عشر الى خمس فترات. في مؤتمر فيينا أعادت الدول الأوروبية فرنسا الى الحظيرة ووافقت على قواعد لعب معينة لتساوي بين اللاعبين. وشكلت هذه القواعد "التناسق الأوروبي" (European Concer) للفترة من ١٨١٥ الى ١٨٢٢. فنسقت الدول الأوروبية عملها مجتمعة بين آونة واخرى لحل الخلافات وتأمين التوازن وتقلبت تدخلات معينة لابقاء حكومات في السلطة لأن تغييرها كان سيؤدي الى

إعادة رسم للسياسة بشكل يخل بالاستقرار، وزاد الأمر صعوبة مع اتساع نطاق النزعة القومية والثورات الديمقراطية ، لكن تنسيقا مبدئيا استمر من ١٨٢٢ الى ١٨٥٤ .

وقد انهار التنسيق هذا في اواسط القرن حين جاءت الثورات القومية الليبرالية لتتحدى ممارسات تقديم التعويضات الاقليمية او إعادة الحكومات الى السلطة حفظا للتوازن. فقد قويت النزعة القومية الى الحد الذي لم تعد تسمح فيه بتقطيع وتجزئة الاراضي بمثل سهولة تقطيع الاجبان.

الفترة الثالثة من العملية (١٨٥٤ - ١٨٧٠) كانت أقل اعتدالا الى حد كبير وشهدت خمس حروب. احدى الحروب (حرب القرم) كانت حرب توازن قوى كلاسيكي حالت فرنسا وبريطانيا فيها دون ممارسة روسيا الضغط على الامبراطورية العثمانية المتداعية. اما الحروب الأخرى فلها علاقة بحركة الوحدة الإيطالية والألمانية. وفي هذه الفترة نبذ الزعماء السياسيون القواعد القديمة وبدأوا يستعملون التيار القومي لخدمة أغراضهم. ومن امثلة ذلك بسمارك لم يكن قوميا أيديولوجيا ألمانيا بل رجلا شديد المحافظة أراد توحيد ألمانيا تحت حكم العائلة المالكة البروسية لكنه لم يتوان عن استخدام الحماس القومي والحروب لدحر الدنمارك والنمسا وفرنسا تحقيقا لأغراضه وما ان انجز المهمة حتى عاد الى سابق اسلوبه المحافظ.

الفترة الرابعة (١٨٧٠ - ١٨٩٠) اتسمت بتوازن القوى البسماركي حيث قامت ألمانيا الموحدة تحت الزعامة البروسية بدور قيادي ولقد أدار بسمارك سياسته بمرونة مستعينا بتحالفات متنوعة محاولا دفع فرنسا الى مغامرات امبريالية في ما وراء البحار ليصرف انتباهها عن اقليمي الالزاس واللورين اللذين خسرتها في حرب السبعين وضيق نطاق الامبريالية الألمانية ليبقى فعل التوازن الأوروبي مرتكزا على برلين. غير ان خلفاء بسمارك لم يكونوا بمستوى ذكائه. لقد ظل ميزان القوى قائما للفترة ١٨٩٠ - ١٩١٤ لكنه فقد مرونته تدريجيا ، فلم يجدد خلفاء بسمارك التحالف وانخرطت ألمانيا في مغامرات امبريالية في ما وراء البحار متحدية التفوق البحري البريطاني. كما انها لم تثن النمسا عن الدخول في مواجهات مع روسيا بشأن البلقان. وقد عززت

هذه السياسات الخوف من تنامي القوة الألمانية ودفعت النظام الى حالة الاستقطاب وقادت الى الحرب العالمية الاولى.

عملية تكوين ميزان القوى قبل الحرب العالمية الاولى

التنسيق الأوروبي	١٨٢٢ -	١٨١٥
التنسيق سائب	١٨٥٤ -	١٨٢٢
ظهور النزعة القومية وتوحيد إيطاليا وألمانيا	١٨٧٠ -	١٨٥٤
سياسة بسمارك في توازن القوى	١٨٩٠ -	١٨٧٠
فقدان المرونة بين الدول والاقطاب	١٩١٤ -	١٨٩٠

الاحلاف:

ان توازن القوى كنظام متعدد الاقطاب يدين بالفضل لمبدأ الاحلاف. والاحلاف ترتيبات رسمية أو غير رسمية تدخلها الدول ذات السيادة مع بعضها البعض لضمان الأمن المتبادل. وقد تكون وراء قيام حلف - أو تحالف - دواعي قلق عسكرية: كأن ترى دولتان متوسطتا الحجم أنهما تصبحان في مأمن من تهديد دولة أكبر اذا تحالفتا. والحق ان الاحلاف العسكرية هي، تقليدياً، احدى النقاط البؤرية (أو البؤر الساخنة) في السياسة الدولية.

و قد تقيم الدول تحالفات لأسباب غيرعسكرية. فقد ذكرنا في وقت سابق ان آلايديولوجيات تجمع الدول مع بعضها البعض في أغلب الاحيان، وقد تسبب الصدمات بين الدول أيضاً. وقد تكون المخاوف الإقتصادية سببا اخر لاقامة حلف وخاصة في مناطق العالم الحديث التي اضمحلت فيها دواعي القلق العسكري الصرف.

و تنهار الاحلاف لأسباب لا تقل عن اسباب تشكيلها. ولكن يصح القول بصفة عامة ان الدول تكف عن التحالف حين ترى الواحدة في الأخرى تهديداً لأمنها. وقد يحدث هذا حين يتغير النظام في احدى الدول المتحالفة، الامر الذي يعني ان الدولتين لم تعودا تشتركان في الايديوجيا نفسها. وهكذا كانت الصين والولايات المتحدة متحالفتين يوم كان القوميون يحكمون الصين قبل عام ١٩٤٩ وقد تكون هناك أسباب أخرى لانتهاء تحالف ما طبعاً وحين تتعاطم قوة احدى الدولتين المتحالفتين، فتنظر الى الدولة الأخرى على انها منافسة لها في نظرة الدولة الثانية وانها اصبحت تهديداً لها. فتبدأ بالبحث عن حلفاء لها في اماكن أخرى لتحقيق التوازن. كانت المرونة والتعقيد العلامة المميزة لنظام تحالف بسمارك. فالصفة الاولى حققت الاستقرار لنظام توازن القوى وذلك بالسماح بقيام أزمات وصراعات بين حين واخر مع عدم السماح لها بتقويض النظام كله. كانت ألمانيا في قلب النظام ويمكن تشبيهه بسمارك بواحد من الهواة المتمرسين الذين يستطيعون ابقاء عدد من الكرات في الهواء في آن واحد. فان سقطت واحدة حافظ على البقية سابعة في الهواء بل انه يستطيع الانحناء لالتقاط الكرة الساقطة من الارض قبل ان تسقط الكرات الأخرى، ومع ذلك كان التعقيد نقطة ضعف النظام. فحين خلف بسمارك قادة أقل براعة عجزوا عن ادامة نظام التحالف فبدلاً من تصريف الصراعات بعيداً عن ألمانيا، كما فعل بسمارك بتشجيعه فرنسا على صرف طاقاتها في الفتوحات الاستعمارية في أفريقيا، جعل القادة الالمان الاحلاف تبطل وتوترو وتتصاعد وصولاً الى عام ١٩١٤. وبدلاً من تجديد التحالف الألماني الروسي ترك القيصر الألماني روسيا تمضي لتتحالف مع بريطانيا. ثم اذا بنظام الاحلاف متعددة الاقطاب اللين المرن يتحول تدريجياً الى كتلتي تحالف تحملان في ثناياهما نتائج خطيرة الاثار على السلام الأوروبي.

جذور الحرب العالمية الاولى:

اهلكت الحرب العالمية حوالي ١٥ مليون انسان. ففي معركة واحدة - معركة السوم - سقط ١,٣ مليون جندي بين قتيل وجريح. مقابل ٣٦٠٠٠ جندي حين هزم بسمارك النمسا عام ١٨٦٦. وخسرت الولايات المتحدة حوالي ٥٥٠٠٠ جندي في كل من كوريا وفيتنام. كانت

الحرب العالمية الاولى حرب خنادق واسلاك شائكة ومدافع رشاشة ومدفعية ثقيلة قضت على جيل برمته من الشباب الأوروبي ، فلم تدمر البشر وحسب ، بل دمرت ثلاث امبراطوريات أوروبية: الألمانية والنمساوية ، المجرية والروسية^(١) . وكانت أوروبا مركز توازن القوى الدولي الى ما قبل الحرب العالمية الاولى. لقد ظل لأوروبا وزنها بعد الحرب الاولى. لكن الولايات المتحدة واليابان اصبحتا الدولتين العظميين وبرزت قوتهما على مسرح الاحداث في العالم . كذلك حملت الحرب الاولى الثورة الروسية وبداية المعركة الايديولوجية التي أرهقت القرن العشرين برمته .

كيف أمكن أن تحصل هذه الكارثة؟ اجتمع الأمير بيرنهارد فون بيلو Prince Bernhard von Bulow ، مستشار ألمانيا من ١٩٠٠ الى ١٩٠٩ ، بخليفته بيتمان هولفيج Bethmann Hollweg بقصر المستشارية في برلين بعد اندلاع الحرب بفترة قصيرة. وفي ما يلي نص حديث بيلوف عما يتذكره في تلك المناسبة^(٢) :

كان بيتمان واقفا في وسط الغرفة . كيف أنسى وجهه والنظرة في عينيه؟ ثمّة صورة لرسام انكليزي مشهور يبدو كبش فداء وفي عينيه نظرة حزن وكرب لا توصف. مثل هذا الهم قرأته في عيني بيتما. وأخيرا قلت له: " حسنا , قل لي على الاقل كيف حدث هذا كله". فرجع ذراعيه النحيلتين الى السماء وقال بصوت منهك كئيب: "آه , ليتني أدري!". لكم تمنيت لو كان بمسطاعي أن آتي بلقطة بيتمان في لحظة قال فيها تلك الكلمات. ان صورة كهذه كانت ستكون أحسن دليل على ان هذا الرجل البائس لم يكن قط يريد الحرب.

لقد تناولت أجيال من المؤرخين جذور الحرب العالمية الاولى بالدراسة وحاولت تفسير اسباب حدوث الحرب ومن الصعب جدا تحديد سبب واحد فقط لها ولكن يمكن تفكيك السؤال الى مستويات متميزة. وفي كل واحد من هذه المستويات نجد ميزان القوى كنظام متعدد الاقطاب وكسياسة كل دولة منفردة وزعيم بلد منفرد شرطا جوهريا لفهم أسباب اندلاع الحرب. فقد اصبح

(١) انظر ملحق رقم (٨) في نهاية الكتاب للاطلاع على عدد القتلى خلال الحرب.

(٢) مذكرات الامير بيرنارد فون بيلو ١٩٠٩ - ١٩١٩ ، بوسطن ، دار ليتل وبراون ، ١٩٣٢ ، ص ١٦٥-١٦٦.

ميزان القوى أقل تعددية قطبية بسبب من فقدان نظام التحالف مرونته السابق وبذلك ازدادت احتمالات الحرب.

ثلاثة مستويات من التحليل :

ان جزءاً من الإجابة يكمن في كل واحد من مستويات التحليل الثلاثة ، فالإقتصاد -الإيجاز - بالكلمات يقترح ان نبدأ بالأسلوب الأبسط، ونرى كم توضح لنا ثم ننتقل الى الأشد تعقيداً بقدر ما يتطلبه الامر، وعلى هذا ننظر أولاً الى تفسيرات أيضاًحات، مستوى النظام من حيث البنية وعملية التكوين معاً، ثم ننظر الى مستوى المجتمع الداخلي وتتحول أخيراً الى الأفراد، ثم نستعمل تجارب الأفكار المتضادة Counterfactual Thoughts لنرى كيفية تنظيم الأجزاء مع بعضها البعض في تفسير الحرب العالمية الأولى.

هناك عاملان رئيسيان على المستوى البنيوي: بزوغ القوة الألمانية وازدياد تحجر أنظمة الأحلاف، كان تصاعد القوة الألمانية مثيراً حقاً فقد تجاوزت الصناعة الثقيلة الألمانية الصناعة البريطانية في تسعينات القرن الماضي وارتفع الناتج الإجمالي القومي الألماني GNP الى ضعفي الناتج البريطاني في بداية القرن العشرين، ففي ستينات القرن السابق كانت بريطانيا تملك ربع إنتاج العالم الصناعي، لكنه تقلص الى ١٠ بالمائة عام ١٩١٣، فيما ارتفعت حصة ألمانيا الى ١٥ بالمائة، وحولت ألمانيا جانباً من قدراتها الصناعية الى الأغراض العسكرية، بما في ذلك برنامج تسليح بحري ضخم. بدأت بريطانيا تخشى العزلة من جراء تنامي القوة الألمانية وبدأت تقلق بشأن الكيفية التي تدافع بها عن إمبراطوريتها المترامية الأطراف، وتفاقت هذه المخاوف في "حرب البوير" بتعاطف ألمانيا مع البوير، مستوطني جنوب أفريقيا من الأصل الهولندي، الذين حاربتهم بريطانيا في أواخر القرن الماضي.

في عام ١٩٠٧ كتب (السير آير كراون) Sir Eyre Crown السكرتير الدائم لوزارة الخارجية البريطانية، وثيقة مشهورة في تاريخ السياسة الخارجية البريطانية، على شكل مذكرة حاول فيها ترجمة السياسة الخارجية الألمانية، وخلص فيها الى القول بان بريطانيا ما كانت

تسمح لبلد واحد بالسيطرة على قارة أوروبا، رغم ما يسمى عدم وضوح وارتباك السياسة الألمانية. وخرج كراو Sir Crown برأى يقول ان رد بريطانيا اقرب الى قانون الطبيعة.

لقد اسهم رد بريطانيا في ازدياد قوة ألمانيا لخلق السبب البنيوي الثاني للحرب: ازدياد تصلب نظام الأحلاف في أوروبا، ففي عام ١٩٠٤ تخلت بريطانيا عن موقفها التوازني الذي درجت عليه باعتبارها تحتل مكانة شبه منعزلة جغرافياً عن القارة فقدمت تحالفاً مع فرنسا عام ١٩٠٧، ثم اتسع التحالف الأنكلو - فرنسي ليضم روسيا في ما عرف يومئذ بـ(الحلف الثلاثي)، وحين رأت ألمانيا نفسها مطوقة وثقت علاقاتها بإمبراطورية النمسا والمجر، ومع ازدياد تصلب الأحلاف فقدت الدبلوماسية مرونتها السابقة، ولم يعد هناك تغيير للانحياز الذي تميز به ميزان القوى في عهد بسمارك، فما حدث هو العكس إذ تمحورت الدول الكبرى نفسها حول قطبين.

أما ان تسعى ألمانيا الى سيطرة سياسية عامة وهيمنة بحرية، مهددة إستقلال جيرانها ومن ثم وجود إنكلترا، او تكون ألمانيا أخرى لاتحمل مثل هذا الطموح المحدد والواضح وتفكر في الوقت الحاضر باستخدام مركزها المشروع كواحدة من الدول الكبرى في مجلس الأمم، تسعى لتنشيط تجارتها الخارجية، ونشر منافع الثقافة الألمانية وتوسيع نطاق طاقتها الوطنية وخلق مصالح ألمانية جديدة في جميع أنحاء العالم أينما ومتى ما سنحت فرصة سلمية بذلك، ونرى من تأمل الأمر ان لا ضرورة فعلية أمام الحكومة البريطانية لان تقرر بصورة باتة أي النظرتين حول السياسة الألمانية تقبل، لان من الواضح ان المشروع الألماني الثاني - الخطة - (التطور شبه المستقل، غير المعزول كلياً عن خبرة إدارة الدولة) قد يندمج، في أي مرحلة، بالمشروع الأول او المشروع ذي التصميم المدروس، يضاف الى ذلك انه إذا قدر لمشروع التطور ان يتحقق فان ما ينجز لألمانيا من مركز يشكل بلا ريب تهديداً راسخاً للعالم كذلك الذي يحمله أي غزو مقصود من قبل مركز مماثل مدفوع بـ(حقدهن بيت). مذكرات Sir Eyre Crown في ١ كانون الثاني ١٩٠٧

وماذا عن التغييرات في عملية التكوين؟ لقد أثرت النقلة البنيوية في ثنائية الأقطاب على العملية التي عمل بها نظام توازن القوى في القرن التاسع عشر، أضف الى ذلك وجود ثلاثة أسباب أخرى لغياب الاعتدال عن ميزان قوى أوائل القرن العشرين، وشكلت هذه الاسباب الحماسة القومية التي شاعت في عدة بلدان، فظهرت في أوروبا الشرقية حركة تدعو الأقوام التي تتكلم اللغات السلافية الى الإتحاد، وقد هددت الدعوة السلافية هذه الإمبراطوريتين العثمانية

والنمساوية اللتين كانتا تضمان سكاناً سلافاً كثيرين، وبرزت كراهية قومية للسلافيين في ألمانيا، وكتب مؤلفون ألمان عن حتمية قيام معارك تويتونية -سلافية، فيما أجمعت الكتب المدرسية المشاعر القومية، وقد أثبتت النزعة القومية أنها أقوى من الاشتراكية في شد الطبقات العاملة الى بعضها البعض، وأقوى من الرأسمالية التي شددت رجال المصارف الى بعضهم البعض، بل لقد اثبتت، حقاً، إنها أقوى من الروابط العائلية بين الملوك.

فقبيل اندلاع الحرب كتب قيصر ألمانيا الى قيصر روسيا يرجوه ان يتجنب الحرب، وخاطب ابن عمه بعبارة (عزيزي نكي، Dear Nicky) ووقع الرسالة باسم (المخلص ويلي Yours Willie)^(١).

وكان قيصر روسيا يأمل ان يرى الحرب الوشيكة بسبب اغتيال فرد من عائلة مالكة أخرى هو ارشيدوق النمسا فرانس فرديناند Franz Ferdinand وينظر الى الأمور بنفس المنظار، ولكن الحماس القومي كان قد تغلب حينذاك على كل شعور بالتضامن الأرستقراطي او الملكي، ولم تجد تلك البرقية العائلية نفعاً.

سبب اخر لزوال الاعتدال من ميزان قوى أوائل القرن العشرين هو ظهور الرضا بالسلام، فطوال أربعين عاماً لم تنغمس الدول الكبرى بحرب في أوروبا، كانت هناك أزمات - في البوسنة عام ١٩٠٨ وفي المغرب عام ١٩١١ والبلقان عام ١٩١٢- ولكن تمت السيطرة عليها، غير ان التنازلات الدبلوماسية سببت خيبة أمل، ثم راحت تبرز تساؤلات: لماذا يتوجب علينا ان نتنازل؟ لماذا لا نجعل الطرف الاخر يتنازل عن المزيد؟ وصار القبول بـ(داروينية اجتماعية، Social Darwinism) يتزايد، كانت آراء تشارلس داروين Charles Darwin القائلة ببقاء الأصلح معقولة كبناء إحصائي نظري عن تطور الأجناس في عالم الطبيعة، ولكن تطبيقها على المجتمع البشري والأحداث الفريدة خطأ كبير.

(١) نكي وولي تصغير وتحبيب لأسمي William وNicolas وهما قيصر ألمانيا وروسيا يومذاك.

هنا وظفت آراء داروين لتبرير دعوى ان (الأقوى يجب ان يسود) واذا ساد الأقوى فلماذا يقلق على السلام؟ كانت الحروب الطويلة مستبعدة واعتقد كثير من الزعماء بأن الحروب القصيرة الحاسمة التي يكسبها القوي تأتي بتغيير مستحب.

العامل الثالث الذي اسهم في فقدان قوى أوائل القرن العشرين هو المرونة في سياسة ألمانيا، فلقد كانت مبهمة ومربكة وسياسة القيصر خرقاء الى درجة فظيعة، فلم يكن الالمان يختلفون عن الآخرين من حيث ان لديهم (مطامح عالمية) إلا انهم سعوا إليها بطريقة دفعت الجميع الى معاداتهم -تختلف تماماً عن طريقة بسمارك في إدارة السياسة الأوروبية في سبعينات وثمانينات القرن التاسع عشر، فقد أثار الالمان عداوة البريطانيين حين بدأوا سباق تسلح بحري، وأثاروا ضغينة الروس في مسائل تتعلق بتركيا والبلقان واغضبوا فرنسا بشأن محمية فرنسية بالمغرب، وحاول القيصر جر بريطانيا الى صداقته معتقداً بأنه إذا أوقع الذعر في نفوس البريطانيين فذلك سيجعلهم يدركون مدى أهمية ألمانيا ومدى الحاجة الى إقامة علاقات طيبة معها وما حصل هو العكس فقد أخاف البريطانيون لدرجة دفعتهم الى الإرتواء في أحضان الفرنسيين أولاً والروس ثانياً.

وهكذا شعر الالمان، بحلول عام ١٩١٤ بان عليهم الإفلات من هذا الطوق ولهذا قبلوا بقصد مخاطرة الحرب وهكذا نجد ان الحس القومي وازدياد الرضا بواقع الحال والداروينية الاجتماعية والسياسة الألمانية، كل هذه العوامل أسهمت في ضياع المرونة في عملية تكوين السياسة الدولية وأسهمت بالتالي في إشعال الحرب العالمية الثانية.

ويقدم لنا المستوى الثاني من التحليل نظرة الى ما كان يحدث داخل المجتمع وفي السياسة الداخلية^(١)، في هذا المستوى يوجد تفسير يمكن ان نرفضه باطمئنان: دعوى لينين ان رأسماليي المال كانوا سبب الحرب، فالحرب العالمية الأولى، في رأي لينين، اخر مراحل الإمبريالية

^(١) انظر ملحق رقم (٦) للاطلاع على مخطط توضيحي للنظريات الثلاث حول أسباب اندلاع الحرب العالمية الأولى عام ١٩١٤.

الرأسمالية، ولكن الحرب لم تنشأ عن صراعات إمبريالية حول تقسيم المستعمرات كما توقع لينين ففي عام ١٨٩٨ قامت مواجهة بين بريطانيا وفرنسا عند منطقة فاشوده في السودان إذ اراد البريطانيون إكمال خط سكة حديد الشمال- الجنوب الذي يمتد من جنوب أفريقيا الى مصر، في حين حاول الفرنسيون مد خط من الشرق الى الغرب يربط مستعمراتهم في أفريقيا، لو كانت الحرب حصلت يومذاك لصح تفسير لينين، والحقيقة ان الحرب اندلعت بعد ستة عشر عاماً من ذلك التاريخ في أوروبا وكان الصيرافة اشد المقاومين لها عشية اندلاعها، لقد شعر (السير ادوارد كري Edward Grey) وزير الخارجية البريطاني بان عليه اتباع نصيحة السير ايركراون وعلى بريطانيا منع ألمانيا من التحكم بميزان القوى الأوروبي، بيد ان قلق كري كان منصباً على إيجاد طريقة يدفع بها صيرافة لندن الى تأييد إعلان الحرب.

يمكننا رفض التفسير اللينيني، لكن هناك سببين داخليين اخرين يجب أخذهما بجدية اكبر: أحدهما هو الأزمات الداخلية في الإمبراطوريتين الهرمتين النمساوية- المجرية والعثمانية، والثاني هو وضع السياسة الداخلية في ألمانيا.

فكلتا الإمبراطوريتين النمساوية والتركية العثمانية تضمان قوميات متعددة وتواجهان تهديد الحماس القومي.

يضاف الى ذلك ان الحكومة العثمانية كانت شديدة الضعف وتعاني من الفساد وهدفاً سهلاً للجماعات القومية البلقانية التي كانت تسعى للتحرر من الحكم التركي الذي امتد قروناً من الزمن، ونجحت حروب البلقان عام ١٩١٢ في اخراج الأتراك لتبدأ دول البلقان الجديدة في السنة التالية حرباً في ما بينها على الغنائم والأسلاب وشجعت الحروب بعض دول البلقان على محاربة النمسا من منطلق أنه إذا كان بالإمكان طرد الأتراك فلماذا لا يطرد النمساويون أيضاً؟

تصدت صربيا دول البلقان، وخشيت النمسا هذا الضغط القومي وأقلقها ما ينتج عن هذا من فقدان المنزلة والاعتبار واخيراً دخلت النمسا في عداء مع صربيا بسبب اغتيال الارشيدوق فرانس فرديناند على يد إرهابي صربي بل لأن النمسا أرادت أضعاف صربيا حتى لا تغدو بؤرة تستقطب سلاف البلقان وأوضح (الجنرال كونراد General Konrad) رئيس الأركان

النمساوي ودافعه علناً حين قال: لهذا السبب وليس انتقاماً لعملية الاغتيال، يتوجب على إمبراطورية النمسا والمجر ان تشهر السيف بوجه صربيا، لقد امسك بخناق الملكية وبات عليها ان تختار بين ان تسلم رقيبتها للخنق او تبذل محاولة أخرى لمنع تدميرها^(١).

تفسير مهم اخر للمستوى الداخلي يكمن في السياسة الداخلية الألمانية، فالمؤرخ (فرانس فيشر) واتباعه يذهبون الى القول ان المشاكل الاجتماعية الألمانية كانت سبباً رئيسياً للحرب، ويرى فيشر ان جهود ألمانيا باتجاه السيطرة العالمية كانت محاولة من جانب الطبقات الحاكمة لصرف الانتباه عن بؤس الاندماج الداخلي للمجتمع الألماني، وتقول هذه المدرسة الفكرية ان إئتلافاً محلياً من ملاكي الأراضي الأرستقراطيين والرأسماليين الصناعيين الكبار، يدعى (إئتلاف الشوفان والحديد) كان يحكم ألمانيا، وان هذا الإئتلاف الحاكم اعتمد السياسات التوسعية لتوفير مغامرات خارجية بدلاً من اصلاحات داخلية، أي الألعاب البهلوانية بدل الخبز.

فكانت التوسعية بديلاً عن الديمقراطية الاجتماعية، هذا ليس كافياً لتفسير اندلاع الحرب العالمية الأولى، لكنه يساعدنا على معرفة مصدر الضغط الذي فرضته ألمانيا على النظام الدولي بعد عام ١٨٩٠.

وماذا عن مستوى التحليل الأول، عن دور الأفراد؟ ان الصفة التي اتسمت بها هذه القيادة عشية الحرب العالمية الأولى، هي ضاكة وزنها، فالإمبراطور النمساوي فرانس يوزيف كان شيخاً هرمًا متعباً اسلم قيادة الجيش لرئيس أركانه الجنرال كونراد ووزير خارجيته المنافق الكونت بيرشتولد، ومن سخریات القدر ان ولي العهد فرانس فريناند، الذي اغتيل في ساراييفو، كان رجلاً معتدلاً يحمل آراء سياسية ليبرالية وفي روسيا كان القيصر نيقولا (نيكولاس) الثاني حاكماً مطلقاً قضى عمره في عزلة عن العالم يقاوم أي تغيير داخل بلاده، مستعيناً بوزيري خارجية ودفاع غير كفوءين وخاضعاً بشدة لزوجته المريضة العصبية، واهم من هذا هو القيصر الألماني الذي

^(١) Baron Conrad von Hotzendorff، أصول الحرب العالمية، ج ٢، نيويورك، دار كميلان، ١٩٢٨، ص ١٨٥ -

كان يعاني من شعور مستحکم بالضعف، كان شخصاً متبجحاً ضعيف الشخصية وعاطفياً للغاية قاد ألمانيا الى سياسة مليئة بالمخاطر وهو اعزل من كل كفاءة ودراية، وفي هذا يقول (فون بيلوف):

”لم يكن فيلهيلم الثاني يريد الحرب، ان لم يكن لسبب فلأن أعصابه كانت تنهار أمام أي موقف حرج، وفي لحظة الخطر كان جلالته غير قادر إطلاقاً على قيادة جيشه في المعركة، كان عارفاً تماماً انه مصاب بالاجهاد العصبي (النوراستينيا) أما خطبه الطافحة بالحماس العنصري والتهديد والوعيد فكان يريد بها إعطاء الأجناب انطباعاً بأنهم أمام فريدريك كبير او نابيلون اخر“^(١)

رد فعل ألمانيا لاعلان الحرب العالمية الاولى

ادوار السابع (خال القيصر وملك إنكلترا السابق) ما زال وهو في القبر، أقوى مني انا الحي! وكيف أظن ان هناك أناساً يعتقدون بان إنكلترا يمكن كسبها او جعلها مسالمة بهذا الإجراء القميء او ذاك!! الآن يجب إمطة اللثام عن هذا الخداع كله ولا يمزق قناع السلام المسيحي بقسوة وعلانية عن وجه —بريطانيا— ويشهر بدعاوى السلام الكاذبة المرائية!! وعلى قناصلنا وعملائنا في تركيا والهند تحريض العالم المحمدي (الإسلامي) كله على الثورة العارمة على أمة البقالين المكروهين الكاذبة عديمة الأخلاق هذه، فإذا كان علينا ان ننزف دماً حتى الموت فلا اقل من ان نخسر إنكلترا الهند^(١).

القيصر فيلهيلم الثاني

^(١) Richard Ned Lebow بين السلم والحرب: طبيعة الأزمة الدولية، بالتيمور، مطابع جامعة جونز هوبكنز، ١٩٨١، ص

١٣٩.

^(١) المصدر السابق، ص ١٤٤.

هل كانت الحرب حتمية الوقوع؟

حين تكون هناك أسباب عدة، كل واحد منها يكفي وحده ان يكون سببا للحرب نقول عن هذه الحالة إنها (مفروغ منها) لذا كانت الحرب العالمية الأولى مسألة (مفروغاً منها) فهل يعني هذا إنها كانت حتمية الوقوع؟ الجواب: لا، لم تكن حتمية الوقوع حتى اندلاعها في شهر آب (اغسطس) ١٩١٤، وحتى ذلك الوقت لم يكن أمراً حتمياً ان تستمر المذبحة أربع سنوات.

لنميز ثلاثة أنماط من الاسباب على أساس قريها زمنياً من الأحداث التي نتناولها بالتفصيل، الأبعد منها أسباب عميقة تليها الاسباب الوسطى، أما تلك التي تسبق الأحداث مباشرة فهي الاسباب المعجلة، إذا اعتمدنا التناظر نتساءل: كيف يا ترى اشتعل الضوء في غرفتك، فيكون الجواب ان السبب المعجل هو انك أدرت زر الأنارة ويكون السبب المباشر ان أحداً مد أسلاك الكهرباء الى البناية والسبب العميق ان (توماس اديسون Thomas) اكتشف كيفية إيصال الكهرباء. تناظر اخر، او قياس يراد به تقريب الفكرة، هو إشعال نار: هنا تكون قطع الخشب الاسباب العميقة وعود الثقاب وقطعة الورق السبب المباشر وإشعال عود الثقاب فعلاً السبب المعجل.

وفي الحرب العالمية الأولى كانت الاسباب العميقة هي التغيرات التي طرأت على بنية ميزان القوى وبعض اوجه أنظمة السياسة الداخلية، وبعض الاسباب المهمة بصفة خاصة كان بزوغ الروح القومية وما نتج عنه من انهيار إمبراطوريتين هرميتين والحالة السياسية الألمانية، والأسباب المباشرة هي السياسة الألمانية وظاهرة الرضا بالسلام وحماسة الزعماء الشخصية، أما السبب المعجل فهو اغتيال فرانس فرديناند في سراييفو على يد إرهابي صربي^(١).

حين نرتد بأنظارنا الى الماضي تبدو الأشياء حتمية الوقوع دائماً، وقد نقول لو لم يكن هناك حادث الاغتيال لكان لا بد من وقوع حادث اخر، يقول البعض ان الأحداث المعجلة تشبه الحافلات الكهربائية: تأتي تباعاً كل عشر دقائق، وعلى هذا فان حادثة سراييفو لم تكن على

(١) انظر ملحق رقم (٧) في نهاية الكتاب.

ذلك القدر من الأهمية، ولا بد ان حوادث اخرى وقعت عاجلاً او أجلاً، هذا النمط من الطرح يمكن اختبار مدى سلامته بواسطة تاريخ المتضادات.

يمكننا ان نسال بـ(ماذا لو) او (ماذا كان سيحصل) حين نتأمل تاريخ تلك الحقبة بعناية وماذا سيكون عليه الامر لو لم يكن ثمة اغتيال في سراييفو؟ ماذا لو كان الديمقراطيون الاشتراكيون جاءوا للحكم في ألمانيا؟ ثم هناك مسألة الاحتمال، ان احتمال اندلاع الحرب كبير من خلال الاسباب العميقة والمباشرة.

لكن الاحتمال الكبير لايعني الحتمية، لنستعرض مثال النار ثنائية، فقطع الخشب وعود الثقاب قد تبقى دهنأ طويلاً من دون ان توقد ناراً، ولو أمطرت السماء لا يعود عود الثقاب يقدر على إشعال النار حتى لو حدثت قضية سراييفو في حينها.

لنفرض انه لم تكن هناك قضية سراييفو عام ١٩١٤، ولم تحصل أزمة حتى عام ١٩١٦، فماذا كان سيحدث؟ في عام ١٩١٤ كان الجنرال فون موتكة General von Moltke ووزير الخارجية (جاكو Jagow) وهما من اشد القادة الالمان تعجياً للحرب، يعتقدان بان الحرب مع روسيا لا مفر منها، كانا يعرفان ان من الصعب على ألمانيا ان تحارب على جبهتين ولا بد لها من دحر أحد الطرفين لتتفرغ لمحاربة الطرف الاخر، صحيح ان روسيا اكبر لكنها متخلفة تكنولوجيا وشبكة مواصلاتها بائسة، إذن يمكن تأجيلها للضربة التالية، كان على ألمانيا ان تسرع بالتحرك غرباً أولاً لسحق فرنسا، فبعد انتصارها في الغرب يمكنها ان تتحول الى الشرق وتهزم الروس دون عناء، وكانت هذه (خطة شليفن^(١) Schlieffen Plan) خطة الحرب التي وضعتها الأركان العامة الألمانية لهجوم سريع كاسح عبر بلجيكا (خارقة بذلك حياد بلجيكا) لدحر فرنسا بسرعة ومن ثم التحول نحو الشرق.

لكن هذه الاستراتيجية كانت ستغدو بالية بحلول عام ١٩١٦ لان روسيا وظفت القروض الفرنسية في مد سكك حديد في تسعينات القرن التاسع عشر وكان نقل كافة قوات الروس الى

(١) انظر ملحق رقم (٥) للاطلاع على تفاصيل الخطة وفرضياتها عام ١٩١٤.

الجبهة الألمانية يستغرق شهرين او ثلاثة، موفرين للألمان متسعاً من الوقت لمحاربة فرنسا أولاً، وفي عام ١٩١٠ تقلصت المدة الى ١٨ يوماً، وكان الستراتيجيون الالمان على دراية بأنهم لم يعودوا يملكون حزام أمان زمني كبير، وبحلول عام ١٩١٦ لا يعود لهذا الحزام الأمني الزمني وجود ويترتب على ألمانيا ان تتخلى عن استراتيجية الجبهتين، وفكر بعض القادة الالمان بان حرباً في عام ١٩١٤ افضل من حرب بعد ذلك التأريخ، لقد أرادوا اغتنام فرصة الأزمة لشن وكسب حرب واقعية.

ولو لم يكن هناك اغتيال ولا أزمة في عام ١٩١٤ ومضت الأمور كما هي بدون حرب الى عام ١٩١٦، كان من الممكن ان يشعر الالمان يومئذ بان هناك ما يردعهم ويعدم قدرتهم على المخاطرة بالحرب على جبهتين ولربما فكروا اكثر من مرة قبل توقيعهم للنمسا على بياض، كما فعلوا عام ١٩١٤، او ربما كانوا سيلغون (خطة شليفن) وينصرفون الى الحرب في الشرق فقط، ولربما كانوا سلموا بالأمر الواقع وتصالحو مع بريطانيا العظمى او غيروا رأيهم حول فائدة الحملة، باختصار لو مرت سنتان لحصلت تغييرات كثيرة تتعلق بقوة روسيا ربما كانت ستمنع اندلاع الحرب. ولولا الحرب لكانت قوة ألمانيا الصناعية استمرت بالازدياد، ومن سخریات القدر ان ألمانيا، من غير حرب، كانت ستسيطر على أوروبا، كما يرى المؤرخ البريطاني (ا ج تيلور. A.J.P. Taylor) إذا ربما تكون قد بلغت من القوة ما يجعل فرنسا وبريطانيا تترددان عن التحرش بها.

يمكننا أيضاً ان نطرح مسألة التضاد بالنسبة لما كان يمكن ان يحصل في الشؤون الداخلية البريطانية لو كانت مرت سنتان اخر يان بدون حرب، في كتاب (الموت الغريب لانكلترا الليبرالية *The Strange Death of Liberal England*) يحدثنا المؤرخ (جورج دينجرفيلد George Dangerfield) عن القلاقل الداخلية في بريطانيا، كان الحزب الليبرالي (حزب الأحرار Liberal Party) قد تعهد بالخروج من ايرلندا في حين كان المحافظون، وخاصة في ايرلندا الشمالية يعارضون ذلك وبشدة، ولاحق في الأفق بوادر تمرد في الجيش البريطاني ولو كانت انتفاضة اولستر Ulster Revolt حدثت فمن المرجح تماماً ان

تكون بريطانيا مشغولة حينئذ بمشاكلها الداخلية وما كانت بالتالي لتقدر على الاشتراك بالتحالف مع فرنسا وروسيا، ولا شك ان تغييرات ذات أهمية تاريخية كانت ستحصل في السنتين الاخر يبين من السلم.

أي نوع من الحرب؟

مجموعة اخرى من المتضادات تطرح أسئلة تقول: أي نوع من الحروب كان سيحصل لو وضعنا جانباً مسألة إذا كانت هناك حرب ستحصل، صحيح ان الشان السياسي الألماني أخاف جيران ألمانيا وإنما بالمقابل كانت خائفة من تطبيق الحلف الثلاثي، إذن فمن المعقول ان نفترض ان حرباً ما اقرب الى الاحتمال استبعادها، ولكن أي نوع من الحروب، لم يكن لازماً ان تأخذ الحرب شكل الحرب العالمية الأولى التي نتذكرها الآن، ان تكنيك التضاد يقول بإمكان حصول أربعة أنواع اخرى من الحروب.

إحداها ببساطة حرب محلية، بدءاً توقع قيصر ألمانيا تكراراً لأزمة البوسنة عام ١٩٠٨-١٩٠٩، حين دعم الالمان النمساويين وبذلك استطاعت النمسا جعل روسيا تنسحب من البلقان^(١)، ففي ٥ تموز ١٩١٤ وعد قيصر النمسا بالدعم الكامل ثم ذهب للاستجمام، وحين عاد من رحلته البحرية وجد النمساويين قد ملؤوا الصك الذي وقعه لهم على بياض موجهين بذلك إنذاراً نهائياً للصرب، وحين أدرك القيصر هذه الحقيقة بذل جهوداً كبيرة لتطويق الحرب ومنعها من الاتساع، كما أشارت برقيات نيكي/ ويلي سابقاً، ولو كانت جهوده نجحت لما كنا نتحدث، اليوم، عن حرب عظمى بل مجرد حرب نمساوية صربية صغيرة في آب (اغسطس) ١٩١٤.

إمكانية التضاد الثانية ان تكون حرب جبهة واحدة، حين عبأ الروس قواتهم بدأت التعبئة عند الالمان أيضاً، وسال القيصر الجنرال موتكة اذا كان يستطيع اقتصار العمليات على الجبهة الشرقية فقط، فأجاب موتكة بان ذلك غير ممكن لان أي تغيير في توقيتات تعبئة القوات

(١) انظر ملحق رقم (٤) الاطلاع على منطقة البلقان وطموحات الروس والمجريين عام ١٩١٤.

والتجهيزات يؤدي الى كابوس تعبوي، واخبر القيصر بأنه حاول تغيير الخطط فوجد نفسه أمام كتلة من الفوضى لا طاقة له بها، ومع ذلك فقد اعترف (الجنرال فون ستاب Von Staab) قائد فرقة السكك في الجيش الألماني بعد الحرب بان إمكانية تغيير الخطط التعبوية بنجاح كانت متوفرة يومذاك، ولو كان قيصر ألمانيا عرف هذه الحقيقة وأصر على تنفيذها لكان من الممكن تفادي حرب جبهة واحدة.

حالة التضاد -أي البديل الواقعي الممكن- هو ان نتصور حرباً على جبهتين بلا بريطانيا: ألمانيا والنمسا ضد فرنسا وروسيا، فلو لم يكن هناك حضور بريطاني غير الموازنة فربما كانت ألمانيا كسبت الحرب، وربما لم تكن بريطانيا لتدخل الحرب لو لم تغزو ألمانيا بلجيكا وان لم تكن بلجيكا السبب الرئيس لدخول بريطانيا الحرب، فالبعض، ومنهم السير ادوارد كرني، يرى ان السبب الرئيس هو الخوف من سيطرة ألمانيا على القارة، لكن بريطانيا دولة ديمقراطية وكان حزب الأحرار الحاكم منشقاً على نفسه واليساريون من الأحرار يعارضون الحرب ولكن حين اجتاحت ألمانيا بلجيكا منتهكة حيادها أعطى هذا الحادث مؤيدي الحرب من الأحرار قوة للتغلب على تردد مناهضي الحرب ورأب الصدع الذي حصل في الحكومة البريطانية.

وأخيراً فان التضاد الرابع هو قيام حرب بدون الولايات المتحدة كانت ألمانيا ستكسب الحرب أوائل عام ١٩١٨ لو لم تغير الولايات المتحدة ميزان القوى بدخولها الحرب في عام ١٩١٧. أحد الأسباب التي جعلت الولايات المتحدة تشترك في الحرب كانت حملة الغواصات الألمانية ضد سفن الحلفاء والأمريكان وكان ثمة شيء من حماقة ألمانية: إذ أرسلت ألمانيا برقية الى سفارتها في المكسيك تعرف باسم برقية (زيمرمان Zimmerman Telegram) تطلب منها إثارة القلاقل ضد الامريكان هناك، فاعتبرت الولايات المتحدة هذا عملاً عدائياً، هذه العوامل أكدت دخولها الحرب.

قمع الخيارات:

التاريخ ترسمه المسارات فالأحداث تتوالى بمرور الزمن ودرجات الحرية تتقلص او تضيع ويزداد احتمال قيام حرب لكن قمع الخيارات المتاحة للقادة يمكن ان يفتح ودرجات الحرية

يمكن ان تستعاد فإذا بدأنا من العام ١٨٩٨ وسألنا: أي الحروب هي الأرجح في الحدوث في أوروبا، لجاء الجواب انها الحرب بين فرنسا وبريطانيا، اللتين كانتا تقفان وجهاً لوجه على خلفية نزاع استعماري في أفريقيا، ولكن احتمالات حرب كهذه تقلصت بسبب إبرام الحلف الفرنسي البريطاني عام ١٩٠٤، الذي دخلته روسيا عام ١٩٠٧، وجاءت الأزمة الغربية الأولى عام ١٩٠٥ والأزمة البوسنية عام ١٩٠٨ لترجحا احتمال الحرب ضد ألمانيا، ولكن بعض أحداث مهمة وقعت في عام ١٩١٠، فقد سعى (بيتمان هولفينغ) مستشار ألمانيا الى تحقيق انفراج مع بريطانيا، ولمحت بريطانيا الى أنها ستبقى على الحياد في أية حرب أوروبية إذا قلصت ألمانيا حجم قوتها البحرية، ولاحت في الأفق، في الوقت نفسه، بوادر احتكاك استعماري جديد بين بريطانيا وروسيا في آسيا، وبين بريطانيا وفرنسا بما يهدد بانهيال الحلف الثلاثي او تصدعه، وبعبارة اخرى ان قمع الخيارات بدأ يتوسع ثانية عام ١٩١٠.

ولكن عام ١٩١١ عاد القمع الى الانسداد بقيام الأزمة المغربية الثانية، حيث أعدت بريطانيا أسطولها، ونشط الصيارفة الفرنسيون والألمان في مساعيهم المعارضة للحرب وتراجع قيصر ألمانيا، لكن هذه الأحداث أثرت عميقاً في الرأي العام وزادت المخاوف من نويا الالمان.

صحيح ان حرب البلقان عامي ١٩١٢ و١٩١٣ وتزايد الضغوط على النمسا مهدت الطريق لعام ١٩١٤، لكن جهوداً من اجل الانفراج بذلت مجدداً في عام ١٩١٢، فأرسلت بريطانيا اللورد هالدين Lord Haldane الى برلين واتفق الطرفان على عدد من القضايا، كما بات واضحاً يومذاك ان بريطانيا كسبت سباق التسليح البحري، لعل القمع يعود الى الانفتاح مرة اخرى.

في حزيران ١٩١٤ كان شعور بريطانيا بتحسن العلاقات قوياً الى الحد الذي جعلها توفد أربعة من بوارج (Dreadnought) العملاقة الى ميناء كيل Kiel الألماني في زيارة رسمية، فلو كانت بريطانيا تحسب ان الحرب وشيكة لكان اخر ما تفكر به هو ان ترسل أربعة من أهم بوارجها الحربية الى ميناء معاد في دولة معادية.

فمن الواضح ان فكرة الحرب لم تدر بأذهان البريطانيين في تلك الآونة، والحق ان البحارة البريطانيين والألمان كانوا يتنزهون سوية على أرصفة الميناء، يوم ٢٨ حزيران، حين بلغهم خبر

قيام إرهابي صربي بإطلاق النار على دوق النمسا في مكان بعيد يدعى (ساراييفو) ان للتاريخ مفاجأته ، وكلمة محتمل غير كلمة حتمي .

دروس التاريخ ثانية :

ثمة دروس يمكن ان نستمددها من التاريخ؟ علينا ان نتأني في موضوع الدروس ، ان حالات التناظر يمكن ان تضلل المرء وكثير من الوهم والأساطير أحاط بالحرب العالمية الأولى ، مثلاً: يقول البعض ان الحرب العالمية الأولى أملتتها الصدفة المحضة – كانت عرضية بمعنى الكلمة ، فالنمسا سعت الى الحرب ، وان كانت ستندلع حرب فان ألمانيا كانت تفضل اندلاعها في عام ١٩١٤ لا بعده ، وكان هناك سوء تقدير لطول الحرب وعمقها ، يبدو ان هذا شيء والحرب العرضية أي حرب الصدفة – شيء اخر .

وقيل أيضاً ان سباق التسلح في أوروبا كان سبب الحرب ، ولكن سباق التسلح البحري كان قد انتهى عام ١٩١٢ وخرجت منه بريطانيا فائزة ، وإزاء القلق الأوروبي من ازدياد قوة الجيوش ، يبدو الرأي القائل بان سباق التسلح بالذات كان وراء اندلاع الحرب على قدر كبير من السذاجة . من ناحية اخرى هناك بعض التحذيرات الصحيحة ، فأحد الدروس ان نوجه اهتماماً الى عملية تكوين ميزان القوى والى بنيته ، أي توزيع القوة ، أيضاً .

فلاعتدال يأتي من العملية ، والاستقرار لا يضمنه توزيع القوة وحده ، الدرس المفيد الاخر هو ان نحذر حالة الإخلاء للسلام او الاعتقاد بان الأزمة التالية ستكون على شاكلة الأزمة السابقة ، افتراض ان عام ١٩١٤ هو تكرار لأزمة البوسنة عام ١٩٠٨ ، وان كان واضحاً انه غير ذلك ، يضاف الى ذلك ان تجربة الحرب العالمية الأولى تشير الى أهمية استقرار القوات العسكرية في الأزمات ، دون شعور بوجوب استخدامها او فقدانها ، ثم ان مواعيد تحريك القطارات لم تكن من العوامل الرئيسية في صياغة مجريات الحرب ونتائجها لكنها زادت أمام الزعماء الأوروبيين في صعوبة إيجاد الوقت للجهود الدبلوماسية .

ان عالم التسعينات في القرن العشرين يختلف عن عالم ١٩١٤ بمسألتين مهمتين : أولا هما ان الأسلحة النووية جعلت الحرب الوقائية كارثية ، والثانية ان آيديولوجيا الحرب ، قبول فكرة

الحرب، اضعف كثيراً من ذي قبل، ففي عام ١٩١٤ كانت النظرة الى الحرب على إنها حتمية – لا مفر منها نظرة قدرية تستمد منطقتها من أطروحة الداروينية الاجتماعية القائلة بوجوب الترحيب بالحرب لانها تنقي الجو مثل عاصفة جديدة طيبة وتلك كانت القناعة السائدة عشية الحرب العالمية الأولى، ويرصد (ونستون تشرشل) في كتابه (العالم في الأزمنة) هذا الشعور بصورة جيدة جداً: وتجراًوا وخسروا، وكان ذلك درس عام ١٩١٤

كان شمة نزع غريب في الجو، لقد أتم الرفاه المادي الأمم فتحوّلت بضراوة الى النزاع داخلياً وخارجياً، وتساعدت المشاعر القومية بإفراط إذ ضعف الدين وتأججت في كل بلد ناراً مستعرة مهما سترت، حتى كاد ان يعتقد بان العالم يريد العذاب، والحق ان الناس في كل مكان كانوا متلهفين لان يجراًوا^(١).

(١) Winston Churchill، العالم في الأزمنة، نيويورك، دار نشر سكرينز، ١٩٢٣، ص١٨٨.

فشل الأمن الجماعي والحرب العالمية الثانية

قيام وسقوط الأمن الجماعي :

سببت الحرب العالمية الأولى تمزقاً اجتماعياً شديداً وموجات واسعة النطاق من الغيظ والاشمئزاز من المذبحة المجنونة وحملت سياسة توازن القوى مسؤولية وقوع الحرب، اعتبر (وودرو ولسون) الرئيس الأمريكي أبان الحرب وأحد ليبراليي القرن التاسع عشر الكلاسيكيين، سياسات توازن القوى لا أخلاقية لأنها انتهكت الديمقراطية وحق تقرير المصير الوطني، ووجد ولسون "توازن القوى اللعبة الكبرى المخزية الآن وإلى الأبد، إنه النظام القديم الشرير، النظام الذي ساد قبل هذه الحرب، كان على الحرب العالمية الأولى ان تتخلص من نظام عتيق، نظام غير مستقر، فتوازن القوى شيء يمكننا ان نستغني عنه في المستقبل"^(١).

ولسون كان محقاً، لان سياسات توازن القوى لا تعطي أسبقية للديمقراطية او السلام، وقد رأينا ان توازن القوى كان يصب دائماً في خدمة بقاء نظام الدولة المتسيدة، فالدول تعمل على منع أية دولة من التسلط، وما ينتج عن هذا من توازن قوى يتماشى مع الحرب او انتهاك حق تقرير المصير وان كان هذا هو السبيل الوحيد لصيانة الإستقلال - لقد كانت الحرب العالمية الأولى على درجة من التدمير والفوضى والبربرية مما حدا بالكثيرين الى بدء التفكير بان اعتماد الحرب للمحافظة على توازن القوى أمر لم يعد يطاق، ولكن إذا كان العالم لم يعد يوفر نظام توازن قوى فماذا الذي يحل محله؟

(١) ي دوود : الاوراق العامة لجمهورية وودرو ولسون (نيويورك : هاربر ، ١٩٢٥) ص ١٨٢-١٨٣ .

اعترف ولسون بان الدول ذات السيادة لا يمكن إلغاؤها، لكن القوة يمكن ترويضها بالقانون والمؤسسات كما هو الحال على المستوى المحلي - الداخلي - وكان الحل الليبرالي يدعو الى تطوير مؤسسات دولية تشبه الهيئات التشريعية والمحاكم المحلية كي يمكن تطبيق الإجراءات الديمقراطية على مستوى دولي، وقد ذهب بعض الليبراليين في تلك الأيام الى القول بان الحرب العالمية الأولى لم تحدث من اجل جعل العالم مكاناً اميناً للديمقراطية فقط، بل لكي تجعل الديمقراطية العالم مكاناً اميناً أيضاً، وفي كانون الثاني ١٩١٨ أصدرت الولايات المتحدة بياناً من أربع عشرة نقطة تبين فيه أسبابها لدخول الحرب ودعت فيه الى "جمعية عامة للأمم يتم إنشاؤها وفق مواثيق خاصة يراد بها توفير ضمانات متبادلة لتأمين إستقلال الدول السياسي ووحدة أراضيها صغيرة وكبيرة".

عصبة الأمم:

اعتقد ولسون الذي كان نقاده يتهمونه بالطوباوية، بان تنظيم الأمن الدولي يمكن ان يكون مدخلاً عملياً للسياسة العالمية. كان يعرف ان الاتفاقيات المكتوبة على الورق لا تكفي، إذ لا بد من وجود منظمات وقواعد لتطبيق الاتفاقيات.

لهذا وضع ولسون إيماناً كبيراً في فكرة (عصبة الأمم) فالقوة الأخلاقية مهمة لكن لا بد من قوة عسكرية تسندها، فالأمن يجب ان يكون مسؤولية جماعية واذا ما اجتمعت الدول غير العدوانية كلها لتكون يداً واحدة كانت سيادة القوة الى جانب الخير، فالأمن الدولي لا بد ان يكون مسؤولية جماعية تشكل فيه الدول غير العدوانية إئتلاف أ ضد المعتدين، وحينئذ يعود بالإمكان تجزئة السلام.

كيف يمكن للدول ان تخرج للعالم نظام الأمن الجماعي الجديد هذا؟ أولاً يجعل العدوان عملاً غير مشروع واعتبار الحرب الهجومية خروجاً عن القانون، ثانياً رجع العدوان بتشكيل إئتلاف يضم كل الدول غير المعنية. ثالثاً إذا فشل الردع وحصل العدوان فعلى جميع الدول ان توافق على معاقبة الدولة المعتدية.

ان شريعة الأمن الجماعي هذه حملت بعض اوجه الشبه بسياسات توازن القوى من حيث ان الدول حاولت ردع العدوان بإنشاء إئتلاف قوي وكانت مستعدة لاستعمال القوة إذا فشل الردع. لكن كانت ثلاثة اختلافات مهمة بين الأمن الجماعي وطروح توازن القوى: أولاً - ينصب التركيز في الأمن الجماعي على السياسات العدوانية لدولة ما، لا على طاقة الدولة، في حين أبرمت التحالفات، في سياسات توازن القوى، ضد أية دولة أصبحت قوية، بمعنى ان التركيز انصب على طاقة الدول. ثانياً: لم تبرم التحالفات سلفاً في نظام الأمن الجماعي ما دام غير معلوم أي الدول ستكون عدوانية، فالكل يقف ضد الدولة المعتدية، في حين أقيمت الأحلاف سلفاً في ظل توازن القوى، ثالثاً: صمم نظام الأمن الجماعي ليكون عالمياً شاملاً لا محايد فيه ولا مستقل، فإذا كان عدد الدول المحايدة كبيراً بدأ إئتلاف اضعيفاً وضعفت معه قدرة الإئتلاف على ردع المعتدي او معاقبته.

حمل ميثاق عصبة الأمم مبدأ الأمن الجماعي، وكان الميثاق في الوقت نفسه جزءاً من المعاهدات التي أنهت الحرب العالمية الأولى.

ان مواد عدة من ميثاق عصبة الأمم جديرة بالذكر بصورة خاصة، ففي المادة العاشرة تعهدت الدول بحماية جميع الاعضاء من العدوان، وفي المادة رقم ١١ اعتبرت كل حرب او تهديد بالحرب مدعاة لجميع الدول، وجاء في المادتين ١٢ و١٥ ان الدول وافقت على عرض خلافاتها للتحكيم وعدم اللجوء الى الحرب إلا بعد فشل التحكيم بثلاثة شهور، أما المادة رقم ١٦ الحاسمة فقد نصت على ان أية حرب تتجاهل إجراءات عصبة الأمم تعتبر حرباً ضد كل أعضاء العصبة، وتخضع الدولة التي تبدأ الحرب الى عقوبات إقتصادية حالاً. وقد يوصي مجلس عصبة الأمم باعتماد إجراءات عسكرية أيضاً.

هذا موقف صلب، ولكن هناك أمور مبهمه، فما دامت الدول كلها مطلوب منها الموافقة على تطبيق الأمن الجماعي فذلك يعني ان كلاً منها يملك حق النقض (الفيتو) وحين وقعت الدول على الميثاق وافقت على الالتزام بالمادة ١٦ منه، ولكن في واقع الحال كانت كل دولة حرة في اختيار نوع العقوبات وطريقة تنفيذها، وما كانت هناك سلطة عليا تلزمهم بهذا الشرط او ذاك.

لذلك لم تكن عصبة الأمم خطوة باتجاه إقامة حكومة عالمية فيها سلطة عليا تستطيع إلزام الدول الاعضاء، لم تكن نهاية نظام الدول الفوضوي بل محاولة لجعل الدول أعضاء جماعيين إنما غير منضبطين في النظام.

ينطوي الأمن الجماعي على مبدأين متصلين: السيادة والقانون الدولي، ان تعريف السيادة بسيط جداً فهي: السيادة - التفوق - الشرعية في حدود ارض معينة.

والسيادة التي نادى بها اخلاقيو الدولة وأقرتها عصبة الأمم تقول بان سيادة الدولة مطلقة وغير قابلة للانتهاك وحكومة دولة ما لها سلطة تامة داخل حدودها، وهي وحدها تستطيع تقليص سلطتها برضاها، أي إذا وقعت حكومة معاهدة مع حكومة أخرى تسمح للحكومة الثانية بقدر من النفوذ في أراضيها فذلك تقليص سلطات متفق عليه وليس غزوا لسيادة الحكومة الأولى، ومن هذا المنطلق تخلت الدول، التي وقعت على ميثاق عصبة الأمم، عن جانب من سيادتها الإقليمية للمجتمع الدولي مقابل ضمانات الأمن الجماعي والقانون الدولي.

ان ما فهمه ولسون وتضمنه ميثاق عصبة الأمم عن القانون الدولي هو ان هذا القانون يسمى على القوانين الوطنية ومن هنا يسمى على السيادة في حالات معينة، فالعقيدة المركزية في القانون الدولي تقول ان الدول ذات السيادة لا تخضع للعقاب إلا إذا خرقت القانون، وما دور الأمن الجماعي بالنسبة للقانون الدولي إلا دور الشرطي في القوانين المحلية، لقد رفضت دول كثيرة مسألة القسر في القانون الدولي ورأت ان الامتثال طوعي لا إجباري.

الولايات المتحدة وعصبة الأمم:

ان عدم رغبة الدول بالتخلي عن بعض سيادتها لقاء الأمن الجماعي كانت واحدة من ابرز نقاط الضعف في عصبة الأمم وعلى هذا الاساس لم تشارك الولايات المتحدة في تأسيسها، فلقد رفض مجلس الشيوخ المصادقة على الميثاق، ونتج عن هذا ان اصبح نظام الأمن الجماعي يعمل في غياب اكبر الممثلين على المسرح الدولي.

” ان الصورة التي في ذهني عن (عصبة الأمم) هي إنها ستكون قوة أخلاقية منظمة للناس في جميع أنحاء العالم وان ضوء الضمير الكشاف هذا سيسلط على أي عمل شرير او عدواني يخطط له احد او يفكر به متى كان ذلك وأينما كان“ . وودرو ولسون^(١)

لماذا تخلت الولايات المتحدة عن مسألة إنشاء عصبة الأمم على الرغم من أنها كانت المشروع الأمريكي لإعادة تنظيم السياسة العالمية؟ أراد معظم الامريكيين العودة الى الوضع (الطبيعي) بعد الحرب العالمية الأولى. وفسر الكثيرون معنى (الطبيعي) بأنه تجنب التورط في الشؤون الدولية، وادعى أنصار هذا التخريج بأنه (مبدأ مورنر) لعام ١٨٢٣ قصر المصالح الامريكية على نصف الكرة الغربي، بينما عادت المعارضة باجتهاداتها الى طريقة جورج واشنطن.

فقد خشي زعيم المعارضة السيناتور هنري كابوت لودج من ولاية ماساجوستز، ان تؤدي المادة ١٦ من ميثاق عصبة الأمم الى إضعاف السيادة الوطنية الامريكية وصلاحيه مجلس الشيوخ بإعلان الحرب، وارتاب كابوت لودج بان الولايات المتحدة قد تجر الى حروب جديدة على أساس قرارات صعبة بفرض الأمن الجماعي، وليس بقرار مجلس الشيوخ او إرادة الشعب الامريكي.

وتصور المساجلات بين الرئيس ولسون والسيناتور لودج، أحياناً على إنها صراع بين المثالي والواقعي، ولكن يمكن النظر إليها أيضاً على إنها مناظرة بين أشكال مختلفة من الأخلاقية الامريكية، وقد عكست دعوة لودج الى (العزلة) موقفاً أمريكياً قديماً وراسخاً من توازن القوى في أوروبا: ان الدولة الأوروبية تقوم بأشياء كريهة باسم ميزان القوى، ومع ذلك فالحقيقة تقول ان الولايات المتحدة استطاعت تجاهل ميزان القوى في القرن التاسع عشر مستمتعة بحرية التحرك بفضل الأسطول البريطاني، فلم تقدر الدول الأوروبية على الوصول الى نصف الكرة الغربي لتهديد

(١) أنيس كلود: القوة و العلاقات الدولية (نيويورك: دار رندوم للنشر ، ١٩٦٢) ص ١٠٤.

الامريكان، والحقيقة ان الولايات المتحدة داعية عزلة حين يتعلق الامر بالتدخل في شؤون جيرانها الضعفاء في امريكا الوسطى او المكسيك، لقد تجاذب الامريكيين بعد الحرب العالمية الأولى من القيم الأخلاقية، كانت الغلبة بينهما للحس الآعزالي تجاه توازن القوى الأوروبي، ونتج عن هذا ان رجحت كفة على أخرى من ميزان القوى في الحرب العالمية الأولى، رفض تحمل المسؤولية في الوضع الدولي الذي أعقب الحرب.

أيام العصبة الأولى:

ان ما أرادته فرنسا اكثر من أي شيء آخر، غداة الحرب، هي الضمانات العسكرية وبان لا تنهض ألمانيا كقوة مرة أخرى، ولما كانت الولايات المتحدة قد وقفت جانباً من قيام العصبة فقد ألححت فرنسا على بريطانيا بطلب ضمانات أمنية وأرادت استعدادات عسكرية في حالة استعادة ألمانيا عافيتها، وقاومت بريطانيا طلبات فرنسا على أساس ان تحالفاً كهذا يعارض روح الأمن الجماعي لانه يحدد المعتدي بصورة مسبقة، كما ان بريطانيا وجدت فرنسا أقوى من ألمانيا، إذن فلا حاجة الى تحالف. حتى لو قام على قواعد ميزان القوى التقليدية، وقالت بريطانيا ان المهم هو إعادة تأهيل ألمانيا مثلما فعل مؤتمر فيينا بإعادة فرنسا الى حظيرة الأنسجام الأوروبي بعد الحرب النابليونية، فقد خفت حمى الحرب في بريطانيا اكثر من فرنسا وشعر الأنكليز بان الوقت قد حان لاسترضاء ألمانيا وإعادتها الى المسيرة الأوروبية.

لكن فرنسا لم تتأثر بهذه الاجتهادات فتحالفت مع بولندا التي عادت الى الوجود بعد الحرب العالمية الأولى ومع الحلف الثلاثي الصغير المكون من يوغسلافيا وتشيكوسلوفاكيا ورومانيا التي كانت أجزاء من إمبراطورية النمسا والمجر السابقة، وقد أوقعت فرنسا بهذه السياسة نفسها بين ورطتين: فلم تكن التحالفات ضد روح الأمن الجماعي وحسب، بل وجدت فرنسا ان التحالفات لم تنفعها كثيراً بلغة ميزان القوى، فكانت بولندا على علاقة سيئة مع جاراتها ولم تكن بديلاً لروسيا التي باتت منبوذة بسبب الثورة البلشفية، وكانت المشاكل العرقية والآنقسامات الداخلية تطحن دول (الحلف الثلاثي الصغير).

خرجت ألمانيا من الحرب العظمى منهكة الى حد كبير، فخسرت ٢٥ الف ميل مربع من أراضيها وسبعة ملايين من سكانها. وأجبرتها معاهدة فرساي على تقليص جيشها الى مائة الف جندي وحرمت عليها امتلاك قوة جوية ، وتضمنت المعاهدة فقرة (جرائم الحرب) الشهيرة التي نصت على ان ألمانيا سببت الحرب، وعليها دفع الثمن، وقد بلغت قائمة التعويضات (٣٣) مليار دولار، وهو مبلغ اعتبره الالمان مستحيلاً في وضعهم المنهار، وحين امتنعت ألمانيا عن التسديد أرسلت فرنسا قواتها لاحتلال إقليم الرور الصناعي الألماني حتى يسد الالمان الدين، وبعد مقاومة سلبية عانت ألمانيا من تضخم نقدي هائل قضى على كل مدخرات الطبقة المتوسطة، وهذه الحقيقة قضت على أحد مصادر الاستقرار الداخلي بينما راحت جمهورية فايمار تكافح من اجل خلق دولة ديمقراطية.

لم تكن إيطاليا متحمسة لمعاهدات السلام في باريس او عصبة الأمم وكانت إيطاليا، في الأصل، متحالفة مع ألمانيا وإمبراطورية النمسا والمجر ولكن في بداية الحرب حدس الإيطاليون انهم يكسبون اكثر إذا انضموا الى الحلفاء، وهكذا فعلوا، وقد تعهدت (معاهدة لندن) السرية، التي أبرمت عام ١٩١٥، بتعويض إيطاليا بجزء من أراضي إمبراطورية النمسا والمجر، التي عرفت في ما بعد باسم يوغسلافيا، وتوقعت إيطاليا الإبقاء بهذه الوعود، لكن وودرو ولسون اعترض على طريقة اقتسام غنائم حرب بالية كهذه، أضاف الى ذلك ان إحدى القوى المحركة للسياسة الخارجية، بعد مجيء موسوليني والفاشييين الى الحكم في عام ١٩٢٢ كانت تسعى لاقامة إمبراطورية رومانية جديدة.

كان من المدهش فعلاً ان تقدر عصبة الأمم على فعل شيء وهي تبدأ بداية كهذه، ومع ذلك فقد برزت الفترة ١٩٢٤ - ١٩٣٠ نجاحاً نسبياً، فوضعت خطاً لتخفيض مبلغ التعويضات التي توجب على ألمانيا تسديدها، وفي عام ١٩٤٢ وقعت الحكومات على بروتوكولات لتسوية النزاعات سلمياً تقضي باعتماد التحكيم لحل الأزمات، ولعل أهم انجاز هو ان معاهدة لوكارنو، التي ابرمت عام ١٩٢٥ سمحت لألمانيا بالانضمام الى عصبة الأمم واعطتها مقعداً في مجلس العصبة.

كان لمعاهدة لوكارنو وجهان: في الغرب تعهدت ألمانيا بعدم انتهاك حدود فرنسا وبلجيكا، وكانت مقاطعتا الألزاس واللورين، اللتين استولى عليهما بسمارك في حرب السبعين، قد أعيدتا الى فرنسا بمعاهدة فرساي. وتعهدت ألمانيا بتجريد قطاع من أراضيها على امتداد نهر الراين من السلاح، وقد اكدت معاهدة لوكارنو هذه النتائج، وفي الشرق وعدت ألمانيا باعتماد التحكيم قبل اللجوء الى تغيير وضع حدودها الشرقية مع بولندا وتشيكوسلوفاكيا، وكان حرياً بالفقرة الثانية ان تقرع جرس التنبيه لان هناك نوعين من الحدود مع ألمانيا - نوع غير قابل للانتهاك في الغرب ونوع قابل للتفاوض والأخذ والرد في الشرق - ان هذه الاتفاقيات كانت تبدو نوعاً من تحقيق تقدم في تلك الأيام.

وتمكنك العصبة من حل بعض الخلافات الصغيرة، كالخلاف بين اليونان وبلغاريا، وبدأت عمليات مفاوضات لنزع السلاح، وفي أعقاب (مؤتمر واشنطن) عام ١٩٢١، الذي وافقت فيه الولايات المتحدة وبريطانيا واليابان على قدر من نزع السلاح البحري، أعدت العصبة لجنة تحضيرية لتوسيع محادثات نزع السلاح، واعدت العدة لمؤتمر دولي لم ينعقد إلا (بعد فوات الأوان) في عام ١٩٣٢، يضاف الى ذلك انه في عام ١٩٢٨ وافقت الدول في ميثاق كيلوغ - بريان Kellogg - Briand Pact الذي حمل اسمي وزيرى خارجية امريكا وفرنسا، على تجريم الحرب. إنما اهم شيء هو ان العصبة اصبحت مركز نشاط دبلوماسي، فبدأ الأمريكان والروس، وهما ليسا عضوين في العصبة، بارسال مراقبين الى اجتماعات العصبة في جنيف، ثم جاء الأنهييار المالي العالمي في تشرين الأول ١٩٢٩ ونجاح الحزب الاشتراكي القومي (النازي) الألماني في انتخابات عام ١٩٣٠ بمثابة مؤشرين للمشاكل القادمة، ورغم ذلك كان ثمة شعور بتحقيق تقدم في اجتماع عصبة الأمم السنوي الذي عقد بشهر أيلول عام ١٩٣٠، لمت ذلك التفاوض بشأن نظام الأمن الجماعي يتبدد في الثلاثينات امام مشكلتي منشوريا والحبشة (اثيوبيا).

الفشل المنشوري:

جاءت المسألة المنشورية امتحاناً للعصبة ففشلت في الامتحان، علينا ان نفهم الوضع في اليابان لكي نفهم القضية المنشورية، لقد حولت اليابان نفسها من ضحية للعدوان الإمبريالي في أواسط القرن التاسع عشر الى دولة إمبريالية ناجحة في نهاية القرن، فقد هزمت روسيا في حرب ١٩٠٤-١٩٠٥ واستعمرت كوريا في عام ١٩١٠ وانضمت الى الحلفاء في الحرب العالمية الأولى، وبعد الحرب سعت الى الاعتراف بها كقوة كبرى، فقاوم الأوروبيون والأمريكان هذا المسعى، ففي باريس رفضت الحكومات الغربية مقترحاً يابانياً بجعل ميثاق العصبة يؤكد مبدأ المساواة العنصرية، وفي العشرينات شرع الامريكان قوانين عنصرية شملت اليابانيين المهاجرين وأنهت بريطانيا معاهدتها الثنائية مع اليابان، فشعر الكثيرون من اليابانيين بأن قواعد وشروط الدخول في نادي الدول الكبرى تغيرت حالماً أو شكوا على دخول النادي.

الصين كانت المثل الآخر في الأزمة المنشورية، ففي العشرينات كانت الفوضى تعم الصين وتطحنها حرب أهلية بين الأقاليم التي يسيطر عليها قادة عسكريون مختلفون، كانت منشوريا جزءاً من الصين وان كانت مستقلة عنها بعض الشيء تحت حكم قائد عسكري، وكانت الحركة القومية الصينية تحاول توحيد البلاد وانتقدت بمرارة المعاهدات المجحفة التي فرضت على الصين في الحقبة الإمبريالية، وبازدياد قوة القومييين الصينيين في العشرينات ازداد الاحتكاك مع اليابانيين وراحت الأجنحة العسكرية تتصارع على السيطرة، ومع اشتداد الأزمة الاقتصادية العالمية وازدياد التوتر مع الصين بدا الجناح العسكري في اليابان يقوى تدريجياً.

وفي أيلول ١٩٣١ اصطنع الجيش الياباني حادثة على خط سكة حديد منشوريا التي كان اليابانيون يتمتعون بحق نشر قوات عنده منذ الحرب الروسية - اليابانية عام ١٩٠٤ - ١٩٠٥.

وأعطت عملية تخريب خطة سكة حديد منشوريا القوات اليابانية ذريعة لاحتلال منشوريا كلها، ولئن زعمت اليابان ان عملها كان لغرض حماية خط سكة الحديد، فقد تجاوزت هذا الادعاء الى حد إقامة حكومة منشورية صنيعة أطلق عليها اسم (مانتشوكو) فاستنجدت الصين بعصبة الأمم، إلا ان اليابان حالت دون إصدار قرار يطلب منها الانسحاب، وفي كانون الأول

وافقت عصبة الأمم على إرسال لجنة برئاسة اللورد لايتن-أو لتن Lord Lytton للتحقيق في أحداث منشوريا.

واخيراً قدم اللورد لايتن تقريره الى العصبة في أيلول ١٩٣٢، رافضاً الذرائع اليابانية للتدخل غير المشروع، صحيح انه اوصى بتقريره ان لا يعترف اعضاء عصبة الأمم بدولة مانتوكو، إلا انه لم يدع الى فرض عقوبات المادة (١٦) على اليابان، وفي شباط ١٩٣٣ صوتت جمعية العصبة العامة ب(٤٢) صوتاً، مقابل صوت واحد، لصالح الاخذ بتقرير لايتن عن الغزو الياباني لمنشوريا، وكانت اليابان الصوت المعارض الوحيد وانسحبت من عصبة الأمم، ويمكن القول، على وجه العموم، ان القضية المنشورية كشفت عن بطن إجراءات عصبة الأمم وتردها وعدم جدواها تماماً.

الأنهيار الأثيوبي:

جاء الامتحان الأخير لنظام الأمن الجماعي لعصبة الأمم في اثيوبيا عام ١٩٣٥، في هذه المرة فرضت عقوبات ولكن الحصيلة النهائية كانت فشلاً آخر، كانت إيطاليا تخطط منذ زمن طويل للاحاق اثيوبيا بإمبراطوريتها، لا لانها قريبة من مستعمراتها في اريتريا على البحر الأحمر فقط، بل لان الفاشيين شعروا بالإهانة بعدما هزم الاثيوبيون محاولة إيطاليا لاستعمار بلدهم ايام الحقبة الإمبريالية في القرن التاسع عشر، وخرجت الأيديولوجيا الفاشية باجتهدا يؤكد على وجوب إصلاح هذا (الخطأ) التاريخي، فقامت إيطاليا بين عامي ١٩٣٤ و ١٩٣٥، بافتعال حوادث على الحدود بين اثيوبيا و اريتريا، وعلنت هذا رغم وجود معاهدة سلام بين إيطاليا واثيوبيا، ورغم حقيقة كون إيطاليا من الموقعين على ميثاق كيلوغ - بريان الذي يحظر الحرب، وكونها عضواً في عصبة الأمم يلزمها اللجوء الى التحكيم لمدة ثلاثة اشهر قبل القيام باي عمل آخر .

في تشرين الأول من عام ١٩٣٥ غزت إيطاليا اثيوبيا، كان الغزو عملاً عدوانياً لا يقبل النقاش، وتجنب مجلس العصبة فيتو إيطاليا عن طريق الدعوة الى مؤتمر خاص لتقرير العقوبات الواجب فرضها على إيطاليا، وحضرت المؤتمر خمسون دولة، وبعد ثمانية أيام من الغزو أوصى المؤتمر الدول الاعضاء بفرض أربع عقوبات: إيقاف الاستيراد من إيطاليا ورفض بيع معينة لا يمكن الحصول عليها من مصادر أخرى بسهولة كالمطاط والصفائح وفرض الحظر على بيع كل

أنواع السلع العسكرية لإيطاليا وحجب القروض عنها، لكن هناك ثلاثة أمور غائبة: فقد ظل بمستطاع إيطاليا شراء الحديد والفحم والنفط، ولم تقطع العلاقات الدبلوماسية معها، ولم تغلق بريطانيا قناة السويس بوجه السفن الإيطالية المحملة بالمعدات في طريقها الى اريتريا.

لماذا لم يفعل أعضاء عصبة الأمم المزيد، كان هناك تفاؤل عام بان العقوبات كانت ستجبر إيطاليا على الانسحاب من اثيوبيا، لاشك ان العقوبات أثرت على الإقتصاد الإيطالي: فقد انخفضت صادرات إيطاليا بنسبة الثلث خلال السنة، وانحدرت قيمة الليرة الإيطالية وقدر ان احتياطات الذهب الإيطالية تنفد في مدى تسعة اشهر، ولكن إذا كانت العقوبات موجعة فانها لم تستطع ان تجعل موسوليني يغير سياسته تجاه اثيوبيا.

وتضائل غضب بريطانيا وفرنسا للقضية الاثيوبية امام قلقها بشأن ميزان القوى الأوروبي، فقد ارادت بريطانيا وفرنسا تجنب التضييق على إيطاليا لان ألمانيا كانت قد بدأت تقوى، وفكرتا في جري إيطاليا الى إئتلاف يوازن القوة مع ألمانيا، وحين بدا هتلر مقدما على احتلال النمسا عام ١٩٣٤، حرك موسوليني قواته الى الحدود النمساوية فترجع هتلر، فامل البريطانيون والفرنسيون باجتذاب موسوليني الى إئتلاف ضد ألمانيا.

لم يحارب الدبلوماسيون التقليديون نظام الأمن الجماعي لعصبة الأمم بل اعادوا تفسيره، ذلك ان آخر ما كانوا يريدونه، من منظور ميزان القوى، هو التورط في صراع ناء في افريقيا، بينما تواجههم مشكلة ملحة في قلب أوروبا، فقال الواقعيون التقليديون ان العدوان البعيد في افريقيا لم يشكل تهديداً للامن الأوروبي، والمصالحة والتفاوض ضروريان لاعادة إيطاليا الى الإئتلاف .

فلا غرابة ان يبدأ البريطانيون والفرنسيون بالتنصل من العقوبات، فقد التقى السير صموئيل هور، وزير الخارجية البريطاني بنظيره الفرنسي (بيير لافال) في كانون الأول ١٩٣٥ ووضعا خطة تقسيم اثيوبيا الى قسمين: أحدهما إيطالي والآخر قطاع تابع لعصبة الأمم، وحين سرب خبر هذا المشروع للصحافة ثارت نائرة الناس في بريطانيا، واضطر هور الى الاستقالة بعدما اتهمه الناس بخيانة عصبة الأمم والأمن الجماعي.

ولكن رأي الأنكليز تغير بعد ثلاثة شهور، ففي آذار ١٩٣٦ شجب هتلر معاهدات لوكارنو وارسل قواته الى منطقة الراين منزوعة السلاح، فكفت بريطانيا وفرنسا، حالاً عن التفكير باثيوبيا، واجتمعتا مع إيطاليا للتشاور حول كيفية المحافظة على توازن القوى في أوروبا، وبهذا طعى موضوع توازن القوى في أوروبا على تطبيق مبدأ الأمن الجماعي في افريقيا، وفي أيار ١٩٣٦ صار بمستطاع الإيطاليين إتمام نصرهم العسكري، وبحلول شهر تموز رفعت العقوبات. ان افضل ما قيل عن هذه المأساة ما جاء على لسان مبعوث هايتي الى عصبة الأمم: (دعونا لا ننسى كباراً كنا او صغاراً، أقوياء او ضعفاء، قريبين او بعيدين، بيضاً او ملونين، اننا قد نصبح يوماً، اثيوبيا أحدهم).^١

ثم ما هي إلا بضع سنوات واصبحت غالبية الأمم الأوروبية ضحايا العدوان الهتلري في الحرب العالمية الثانية، وكانت اولى جهود العالم لتحقيق الأمن الجماعي مبعث احباط.

أصول الحرب العالمية الثانية:

تتجاوز الحرب العالمية الثانية كل الحروب من حيث الخسائر البشرية، التي قدرت ما بين ٣٥ و ٥٠ مليون انسان، وتميزت الحرب بتطوير الأسلحة، فوجد الدبابات والطائرات، التي لم يكن لها شأن كبير في الحرب العالمية الأولى، تهيمن على الحرب العالمية الثانية، وقام الرادار بدور مهم، في (معركة بريطانيا)^٢، مثلاً، التي كانت إحدى نقاط التحول في مجريات الحرب العالمية الثانية، ثم جاءت القنبلة الذرية، طبعاً، في نهاية الحرب ومعها فجر العصر النووي.

انتهت الحرب العالمية الثانية باستسلام دون قيد او شرط، وحصل عكس ما حصل في الحرب العالمية الأولى، فقد احتل الحلفاء ألمانيا واليابان، هذه المرة، وعملوا على تغيير المجتمع أثناء الاحتلال، وجرى حل (المشكلة الألمانية) طوال نصف قرن بتقسيم ألمانيا، كذلك خلقت الحرب العالمية الثانية عالماً ثنائي الأقطاب خرجت فيه الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتي من

^١ ولترز: تاريخ عصبة الأمم (لندن: مطبعة جامعة اكسفورد، ١٩٥٢) ص ٦٥٣.

^٢ انظر ملحق رقم (١١) للاطلاع على خريطة الهجوم الألماني على بريطانيا في آب (اغسطس) ١٩٤٠.

الصراع أقوى من الآخرين بكثير، وكانت الحرب تمثل البديل لأوروبا كمحكم التوازن القوي، وما حصل هو ان أوروبا أصبحت حلبة للمتنافسين الخارجيين، بما يشبه حالة ألمانيا قبل عام ١٨٧٠، وخلقت الحرب العالمية الثانية هيكل النظام العالمي حتى عام ١٩٨٩.

” هنا كما يبدو لي، مفتاح المشكلة ان كان هتلر قصد الحرب عمداً، فهو لم يكن يقصد الحرب بالصورة التي سارت عليها، إلا إذا كان يستطيع التملص بحيلة بارعة مثلما تملص من الحرب الأهلية في الداخل، فما اسهل جعل الآخرين يقومون بالعمل على الذين يملكون دوافع شريرة، وهتلر انتظر من الآخرين القيام بما كان يقوم به لو كان في محلهم.

أ.ج. ب. تيلر^(١)

حرب هتلر:

غالباً ما يطلق على الحرب العالمية الثانية^(٢) (حرب هتلر) هذا صحيح، يبدو انه وصف ساذج، فالحرب العالمية الثانية مسألة قديمة، إنها (الفصل الثاني) من الحرب العظمى التي انهدت الزعامة الأوروبية في عام ١٩١٨، وما كانت الفترة بين الحربين سوى فترة استراحة، لقد أراد هتلر الحرب، إنما ليست الحرب التي صارت تعرف الآن باسم (الحرب العالمية الثانية) أراد حرباً ضارية قصيرة الامد، حرباً خاطفة. ان حرب المحيط الهادي لم تكن حرب هتلر، فقد ظل هتلر يحرض اليابانيين دون جدوى على مهاجمة مستعمرة سنغافورة البريطانية او الهجوم على سيبيريا لاجتذاب القوات الروسية بعيداً عن أوروبا، فلم تفعل اليابان ايأ من الاثنيين، ثم ادهدشت هتلر بهجومها على قاعدة بيرل هاربر البحرية الامريكية^(٣). ان حرب المحيط، رغم كونها جزءاً من الحرب العالمية الثانية، لها جذورها وكانت جهوداً إمبريالية تقليدية للسيطرة على المنطقة.

(١) تايلر، جذور الحرب العالمية الثانية (كرينيج: فاو سيت، ١٩٦١) ص ٢٨١.

(٢) انظر ملحق رقم (٩) لاطلاع على تطورات الحرب بين ١٩٣٩ - ١٩٤٠.

(٣) انظر ملحق رقم (١١).

قد نبالغ من ناحية أخرى، في التوكيد على الأسباب الآخرة، بل ان بعض المؤرخين كاد ان ييريء ساحة هتلر، فذهب (تيلر) الى القول ان هتلر شخص فظيع ومغامر لايسر النفس ومجرد انتهازي انسل من فراغات قوة أحدثتها سياسات الاسترضاء التي انتهجتها الديمقراطيات الغربية، لكن تيلر يمضي الى ابعد من هذا بكثير، مثلاً كتاب (كفاحي) الذي اصدره هتلر عام ١٩٢٤، طرح خطأً مبهمه يعتبرها تيلر "حذلقا هتلرية" تعبر عن الغيظ من غزو الفرنسيين إقليم الرو.

لكن هتلر كتب في عام ١٩٢٨ كتاباً آخر سرياً كرر فيه العديد من دعاوى كتاب (كفاحي) وهذا الكتاب، حتى لو لم يكن خطة مفصلة، يشكل اشارة واضحة الى ما كان هتلر يقصده. ويستخف تيلر أيضاً ب(مذكرة هوسباخ) والكولونيل هوسباخ هذا، الذي كان احد مساعدي هتلر سجل ملاحظات باجتماع في (بيرشتسغادن) عام ١٩٣٧، جاء فيها ان هتلر كان يخطط للاستيلاء على اراض كاملة بحدود عام ١٩٤٣، أي قبل ان يصبح تفوق ألمانيا امراً فائت الاوان، فقد شعر هتلر باهمية استغلال الفرص حين سنحت في الشرق والبدء بالنمسا وتشيكوسلوفاكيا، ان تيلر يرفض اهمية هذه المذكرة لانها لم تكن مذكرة رسمية، فقد كتب تيلر في هذا الموضوع ظهرت ادلة اضافية، فنحن لا نعرف الآن ان هتلر تحدث مراراً عن جدول التوقيت هذا وعن هذه الغايات، لقد تنبأت مذكرة "هو سباخ" بافعال هتلر عموماً.

ستراتيجية هتلر:

كانت امام هتلر، حين جاء الى السلطة عام ١٩٣٣، اربعة خيارات فاستبعد ثلاثة منها، كان يمكن ان يختار السلبية ويرضى بمركز ألمانيا الدولي، او يختار التوسع من خلال النمو الإقتصادي (كما فعلت اليابان بعد الحرب العالمية الثانية) او يقود ألمانيا الى النفوذ الدولي عن طريق التوسع الصناعي، كان يمكن ان يقصر اهدافه على تعديل معاهدة فرساي ويستعيد بعضاً من خسائر ألمانيا عام ١٩١٨، ففي الثلاثينات بدأت الديمقراطيات الغربية تتألم لما وقعته من ظلم على ألمانيا بتحميلها مسؤولية الحرب العالمية الأولى كلها، لكن هتلر رفض هذه الاستراتيجيات الثلاث، مفضلاً الهجوم لكسر الحصار، معتبراً ان ألمانيا المحشورة في وسط أوروبا، لا يمكن ان

تعيش محاصرة الى الابد، عليها ان تكسب أراضي شرقاً طلباً للمجال ويوسع قاعدته ومن ثم يتحرك لطلب دور أكبر في العالم.

اتبع هتلر خياره الرابع في اربع مراحل، شرع اولاً بتهديم اطار عمل معاهدة فرساي بسلسلة من المناورات الدبلوماسية البارعة، ففي تشرين الأول ١٩٣٣ انسحب من عصبة الأمم ومؤتمر نزع السلاح الذي عقدته العصبة، وألقى باللائمة على فرنسا التي قال إنها لا تريد تخفيض قواتها في مؤتمر نزع السلاح مما جعل من المستحيل على ألمانيا استمرار البقاء في العصبة والمؤتمر، وفي كانون الثاني ١٩٣٤ وقع معاهدة مع بولندا ودول شرقي أوروبا الصغيرة، وفي آذار ١٩٣٥ شجب الفقرات العسكرية في معاهدة فرساي قائلاً ان ألمانيا لم تعد تتحمل تحديد جيشها بمائة الف جندي، واعلن انه بدلاً من ذلك سيضاعف جيشه الى ثلاثة اضعاف ويبني قوة جوية.

اجتمع البريطانيون والفرنسيون والإيطاليون في (ستريسا) بإيطاليا لتدارس تحركات هتلر، ولكن هتلر بادر، قبل ان يتوصلوا الى اتفاق، بمفاتيح بريطانيا بشأن التفاوض لعقد معاهدة بحرية، فلم تتوان عن اغتنام الفرصة، وبذلك احبط أي ردود فعل منسقة تصدر عن اجتماع ستريسا، وفي آذار ١٩٣٦، حين اجتذبت أحداث اثيوبيا الاهتمام بعيداً عن وسط أوروبا ارسل هتلر قواته الى منطقة الراين التي جعلتها معاهدات لوكارنو منطقة منزوعة السلاح، وحمل فرنسا مسؤولية دفعه الى هذا العمل، قائلاً ان فرنسا دمرت اتفاقية لوكارنو باجرائها ترتيبات مع الاتحاد السوفيتي، ولمح الى انه قد يعود الى عصبة الأمم بعدما تقبل الدول الأوروبية وجهة نظره بشأن تعديل معاهدة فرساي، وكانت تلك مناورة بارعة لعبت على وتر الشعور بالاثم وعدم وضوح القصد لدى الديمقراطيات الغربية.

المرحلة الثانية (١٩٣٦-١٩٤٠) هي توسع هتلر على حساب الجيران الصغار، ففي عام ١٩٣٦ وضع هتلر خطة إقتصادية لأربع سنوات لبناء الماكينة العسكرية استعداداً للحرب في عام ١٩٤٠ ووقع ميثاق محور مع إيطاليا ومعاهدة ضد الكومنترن (الشيوعية الدولية) مع اليابان، وتدخل الى جانب الفاشيين في الحرب الأهلية الاسبانية، وبرر إرسال قوات لدعم الجنرال الفاشي فرانكو أبان الحرب الأهلية الاسبانية بأنه جزء من حملات الغرب من البلشفية، وفي عام

١٩٣٨ دعى (شوشنيغ Schuschnig)، مستشار النمسا، الشعب النمساوي الى استفتاء حول الاتحاد مع ألمانيا، مؤملاً ان يجيب النمساويون بالرفض قبل ان يفرض هتلر عليهم الوحدة، لكن هتلر تدخل، فزحفت القوات الألمانية على العاصمة فيينا لتقضي بذلك على إستقلال النمسا. وكانت تشيكوسلوفاكيا التالية، فراح هتلر يضغط على تشيكوسلوفاكيا بطرح مسألة تقرير مصير ثلاثة ملايين ألماني يسكنون إقليم (السوديت) من البلاد، كانت هذه المنطقة المحاذية للحدود الألمانية مهمة من الناحية العسكرية لانها تضم مرتفعات بوهيميا، خط الدفاع الطبيعي والمكان المنطقي الذي يبدأ منه التشيكيون دفاعهم ضد الهجوم الألماني المتوقع، وقد خرج هتلر بدعوى ان التسوية التي أعقبت الحرب العالمية الأولى وضعت هؤلاء الناس الناطقين بالألمانية على ارض تشيكية هي انتهاك لحقهم في تقرير المصير ومثل آخر على غدر الدول الغربية، وطلب السماح للأراضي التي تتكلم الألمانية بالانسحاب من تشيكوسلوفاكيا والآنضمام الى موطن الابهاء الألماني، فقلق التشيكيون ودعوا الى الخدمة جانباً من قوات الاحتياط، فأثار هذا غضب هتلر وقرر سحق تشيكوسلوفاكيا.

هذه الأحداث أخافت بريطانيا، التي لم ترد ان تندلع حرب في أوروبا، فقام رئيس الوزراء البريطاني (نيفيل تشمبرلن) بثلاث زيارات لألمانيا في محاولة لأبعاد شبح الحرب، كان تشمبرلن، يعتقد بان لا سبيل لبريطانيا للدفاع عن تشيكوسلوفاكيا لبعده المسافة بين البلدين ولعدم وجود قوات بريطانية في القارة، واهم من هذا انه لم يجد تشيكوسلوفاكيا تستحق الدخول في حرب، ولابريطانيا مستعدة لذلك، فقوة سلاح الجو زادت أهميتها وازداد الخوف من حملات الغارات الجوية، وكان رئيس الوزراء البريطاني مدركاً ان دفاعات بلاده ومنظومات الرادار غير مستعدة لحرب جوية، لهذه الاسباب المتشابكة اجتمع تشمبرلن بهتلر بمدينة ميونيخ في أيلول (سبتمبر) ١٩٣٨ ووافق على تقسيم تشيكوسلوفاكيا وإعطاء أراضي السوديت لألمانيا إذا وعد هتلر بعدم التعرض لبقية تشيكوسلوفاكيا، ووعد هتلر وعاد تشمبرلن الى بريطانيا زاعماً انه أنقذ تشيكوسلوفاكيا وحقق (سلام العصف).

ولم تمض سوى ستة اشهر، آذار (مارس) ١٩٣٩، حتى اجتاحت القوات الألمانية بقية تشيكوسلوفاكيا واحتلت العاصمة براغ وأدركت بريطانيا المصدومة ان هتلر لابد ان يسعى الى المزيد من الاحتلال وان الهدف التالي قد يكون بولندا التي جزئت في القرن الثامن عشر، وأعيدت الى الوجود كدولة غداة الحرب العالمية الأولى، وأعطيت ممراً الى ميناء دانزك على بحر البلطيق، وان كانت المنطقة مأهولة بشعب يتكلم الألمانية، استعمل هتلر التكتيك نفسه مرة أخرى، مدعياً ان وجود شعب يتكلم الألمانية ضمن الأراضي البولندية هو انتهاك لحق تقرير المصير ومثل آخر على غدر نظام فرساي، إنما حاولت بريطانيا وفرنسا، هذه المرة، ردع هتلر بإصدار تعهد بالدفاع عن بولندا، حينئذ قام هتلر بانقلاب دبلوماسي لامع، فإذا به يوقع، فجأة معاهدة مع ستالين في آب ١٩٣٩، رغم قوله من قبل انه يريد الدفاع عن الغرب ضد البلشفية، هذه المعاهدة أعطت هتلر كل المجال لان يفعل في الغرب ما يريد، كما تضمنت بروتوكولا سرياً آخر لتقسيم بولندا واتفق ستالين وهتلر على اخذ حصة لكل منهما، واستولى هتلر على حصته بشنه حرباً على بولندا في أيلول ١٩٣٩، يومها لم يتطلع الى اتفاقية ميونيخ أخرى يتدخل فيها البريطانيون ليعطوه جزءاً من بولندا مقابل وعود بانتهاج الاعتدال.

أما المرحلة الثالثة فكانت قصيرة، فقد حقق هتلر السيادة العسكرية بالقارة عام ١٩٤٠، فبعد احتلاله بولندا هدأت الأحوال مؤقتاً، وأطلق على هذه الفترة (الحرب الزائغة) وتوقع هتلر ان تسعى بريطانيا للسلام، لكنه تخوف، في ربيع عام ١٩٤٠ ان تبعث بريطانيا قواتاً للنرويج فارسل قواته الى هناك تحوطاً لانزال بريطاني ثم شن حرباً خاطفة شملت هولندا وبلجيكا وفرنسا، إذ أرسل دباباته عبر غابة اردين، التي يفترض إنها لا تخترق، مباغتاً الفرنسيين والبريطانيين، والتف حول خط ماجينو ذي الاستحكامات الفرنسية الذي يمتد على طول الحدود الفرنسية مع ألمانيا تقريباً، فطرد القوات البريطانية الى دنكرك، حيث اضطرت الى ترك معداتها واجلاء ما بقي من قواته عبر القنال، وهكذا اصبح هتلر سيد القارة الاورربية من غرب الاتحاد السوفيتي بفضل سلسلة من الحركات شديدة الذكاء في عام ١٩٤٠.

”الآن أصبحت بولندا بالوضع الذي أردته لها .. انا أخاف ان يقدم لي خنزير أواخر، في اللحظة الأخيرة

مشروع وساطة“

ادولف هتلر ٢٧ آب (اغسطس) ١٩٣٩^(١)

المرحلة الرابعة، مرحلة التجاوز والانتشار، أشعلت الحرب الشاملة، لقد أراد هتلر منذ زمن طويل التحرك شرقاً ضد الاتحاد السوفيتي، لكنه أراد التخلص من بريطانيا أول الامر ليتجنب إمكان الحرب على جبهتين، فإذا استطاع الحصول على تفوق جوي استطاع عندئذ عبور القنال وغزو بريطانيا، لكن قوة هتلر الجوية اندحرت في (معركة بريطانيا)^(٢) واذ اخفق في تحقيق التفوق الجوي وجد نفسه ازاء سؤال محير، هل يتوجب عليه ان يؤجل خطته لمهاجمة الاتحاد السوفيتي؟

قرر هتلر مهاجمة الاتحاد السوفيتي، رغم أنه لم يستطع ان يهزم بريطانيا، ظاناً انه سيهزم ستالين بسرعة ثم يتحول الى بريطانيا ثانية، وفوق هذا فانه يحرم بريطانيا بذلك من أي تحالف ذي نفوذ مع الاتحاد السوفيتي.

وفي حزيران ١٩٤١ هجم هتلر على الاتحاد السوفيتي، وكانت غلطة فادحة، وفي كانون الأول من العام نفسه، وبعدما أغار اليابانيون على بيرل هابر، ارتكب خطأ شنيعاً آخر باعلانه الحرب على الولايات المتحدة، وقد فعل هتلر هذا لإبقاء اليابان منغمسة في الحرب، إذ انه كان دائماً يحرض اليابان على الانضمام إليه فاستغل المناسبة ليطلق زوارق الطوربيد ضد السفن الامريكية، وبعمله أثار الحرب العالمية التي قضت على رايحه الثالث.

(١) أدولف هتلر في ٢٧ آب (اغسطس) ١٩٣٩ ، ألمانيا ، ١٨٦٦ - ١٩٤٥ (نيويورك: مطابع جامعة أكسفورد ، ١٩٧٨) ص ٧١٢ .

(٢) انظر ملحق رقم (١٠).

دور الفرد:

ربما لم تكن شخصية هتلر العامل الحاسم في الحرب فالديمقراطيات كانت بدرجة من الضعف والآنقسام الداخلي والشعور بالإثم تجعل أي قومي ألماني ذكي قادراً على تعديل نظام فرساي، لكن المرحلتين الثانية والثالثة، اللتين حققتا السيطرة على أوروبا، اعتمدتا على مهارة هتلر وجراته المجنونة ونزعة القتال في أيديولوجيته، فكثيراً ما كان يلغي قرارات جنرالاته ومسؤوليه المحافظين. لقد أراد هتلر الحرب وكان راغباً في المخاطرة، كذلك تعزى المرحلة الرابعة، التي جاءت بالحرب العالمية والفشل، الى ناحيتين من شخصية هتلر، فقد نشطت شهيته مع استمرار الأكل، كان مقتنعاً بعبقريته، لكن تلك القناعة قادتته الى ارتكاب خطأين فادحين: غزو الاتحاد السوفيتي قبل الإجهاز على بريطانيا وعلان الحرب على الولايات المتحدة، الامر الذي أعطى الرئيس الامريكى فرانكلين روزفيلت مبرراً للاشتراك في حرب في أوروبا وفي المحيط الهادي أيضاً.

العيب الكبير في هتلر أيديولوجيته العنصرية، التي حرمتها من احتياطات غاية في الأهمية، فحين غزت ألمانيا الاتحاد السوفيتي ثار العديد من الاوكرانيين وغيرهم على وحشية ستالين، لكن هتلر نظر إليهم باحتقار على انهم أقوام سلافية دنيا لا تستحق التحالف معها ضد ستالين، كما ظن ان الولايات المتحدة ضعيفة بسبب سكانها السود واليهود، وكان يسخر من روزفيلت بدعوى ان أجداده يهود، لقد عجز عن فهم حقيقة ان التعددية يمكن ان تكون مصدر قوة، وفوق هذا قادتته معاداته للسامية الى طرد بعض العلماء الذين لهم دور حاسم في تطوير القنبلة الذرية، وباختصار، نقول ان فرداً كان أحد الاسباب الحاسمة لاندلاع الحرب العالمية الثانية، فقد كان هتلر وراء قيام ذلك النوع من الحرب وما تمخض عنها.

الاسباب المتعلقة بالنظام والشؤون الداخلية:

كانت هناك أسباب أخرى طبعاً، فالحرب العالمية الثانية اكثر من مجرد حرب هتلرية، وهنا تكمن قيمة تفسير المؤرخ تيلر، فثمة أسباب تتعلق بالنظام من الناحيتين البنيوية

والإجرائية^(١)، فالحرب على المستوى البنيوي، لم تحل المشكلة الألمانية، لقد كانت معاهدة فرساي قاسية من حيث إنها أثارت النزعة القومية الألمانية وتركت للامان إمكانية القيام بتحريك أو آخر، وفوق ذلك فان غياب الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتي عن ميزان القوى حتى وقت متأخر جداً أدى الى عدم ردع ألمانيا، هذا إضافة الى ان عملية بناء النظام الدولي كانت بعيدة عن الاعتدال. كانت ألمانيا، داعية تعديل، تسعى لتحطيم نظام فرساي، أضف الى ذلك ان تنامي الأيديولوجيات الكبرى، أي الفاشية والشيوعية ولد أحقاداً وأعاق الاتصال بين طرف وآخر - في الثلاثينات. وهناك أيضاً ثلاثة تغييرات مهمة على المستوى الداخلي، أولاً: ان الديمقراطيات الغربية التي كانت تمزقها الانقسامات الطبقية والخلافات الأيديولوجية، وكاد التنسيق في رسم السياسة الخارجية ان يكون مستحيلًا، مثل ذلك انه حين جاء الاشتراكي (ليون بلوم) الى الحكم في فرنسا رفع المحافظون شعار (هتلر خير من بلوم) وفي عام ١٩٣٩ أرسلت حكومة المحافظين البريطانية وفداً الى موسكو ليتحرى ان كان بالإمكان توقيع معاهدة مع ستالين، ولكن الوفد والحكومة البريطانية كانا منقسمين على نفسيهما، وقبل التوصل الى قرار بهذا الشأن كان هتلر قد سبق بريطانيا الى ذلك، وكان أحد أسباب تأخر بريطانيا تردد الطبقة الأرستقراطية في التعامل مع الشيوعيين.

السبب الثاني على المستوى الداخلي هو الانهيار الإقتصادي، فالركود الإقتصادي الكبير كان ذا علاقة بالنظام من حيث انه اثر على جميع البلدان وتولد من عجز الدول الرأسمالية الكبرى عن إيجاد وترسيخ تنسيق إقتصادي دولي فعال لمعالجة عدم التوازن في التجارة وجريان رؤوس الأموال بين الدول، لكن الركود ترك بصمات قوية على السياسات الداخلية والصراع الطبقي، وجاءت البطالة الهائلة بتأثيرات تشبه صب نפט على نار، فساهمت في إيصال النازيين الى الحكم بألمانيا وأضعفت الحكومات الديمقراطية.

(١) انظر ملحق رقم (١٣).

السبب الثالث هو سياسة العزلة الامريكية، فقد خرجت الولايات المتحدة من الحرب العالمية الأولى بأقوى إقتصاد في العالم، لكنها رفضت تحمل مسؤولية هذا المركز، وجاء الركود الكبير في الثلاثينيات ليزيد الانشغال بالوضع الداخلي ويعمق فلسفة العزلة، ولم يعر الرئيس فرانكلين روزفيلت، في دورته الرئاسية الأولى، والامريكان الآخرون أوروبا سوى القليل من الاهتمام، بيد انه، بعد إعادة انتخابه في عام ١٩٣٦، أدرك حقيقة ان هتلر إذا قوي جداً فقد يسيطر على أوروبا ومن ثم يهدد الولايات المتحدة، وفي العام التالي ١٩٣٧- بدا روزفيلت يتحدث عما يجري في أوروبا، لكن الامريكيين لم يرغبوا في الاتصال بالوضع الأوروبي، وفي عام ١٩٤٠ قايس روزفيلت بريطانيا بمدمرات مقابل حقوق إقامة قواعد بالمستعمرات في نصف الكرة الغربي، وفي عام ١٩٤١ استدرج الكونغرس الى الموافقة على اتفاق (إعارة-إقراض) تجهيزات حربية لبريطانيا لمنع هزيمتها على يد هتلر، لكن روزفيلت كان يقيده الرأي العام الداخلي في ما يتعلق بحريته ومدى مضيه في مقاومة هتلر، ولم ينتبه الى شعار العزلة الامريكي إلا عند مهاجمة اليابانيين ميناء بيرل هاربر وعلان هتلر الحرب.

كيف تلتقي هذه الأسباب الداخلية والشخصية والنظامية المتعلقة بالنظام^(١)، وتتكامل مكونة الصورة؟ كنا نستطيع القول ان الأسباب العميقة للحرب العالمية الثانية أسباب تتعلق بالنظام - مسألة الحرب العالمية الأولى لم تنته، أما الأسباب الوسيطة فكانت داخلية الى حد كبير. التمزق الاجتماعي والأيدولوجي الذي قاده هتلر في ألمانيا والضعف في الدول الديمقراطية كانا من الاسباب المعجلة في اندلاع الحرب.

هل كانت الحرب حتمية الوقوع؟

هل كانت الحرب العالمية الثانية لا مفر منها^(٢)؟ كلا، لكنها صارت تأخذ هذا الشكل بمرور الزمن، ففي عام ١٩١٨ كان ثمة شيء من احتمال قيام حرب عالمية ثانية، ولكن بعد توقيع

(١) انظر ملحق رقم (١٣).

(٢) انظر ملحق رقم (٩) - تطورات الحرب العالمية الثانية بين (١٩٣٩ - ١٩٤٠).

معاهدات لوكارنو، في عام ١٩٢٦، تلاشى هذا الاحتمال، ثم عاد قمع الخيارات الى الانسداد بعد الركود الكبير في عام ١٩٢٩ ووصل هتلر الى السلطة في عام ١٩٣٣، حتى اندلاع الحرب على مستوى العالم عام ١٩٤١. ان فشل الحرب العالمية الأولى، في حل المشكلة الألمانية معناه ان احتمال قيام حرب ثانية كان وارداً في عام ١٩١٨.

ولو كانت الدول الديمقراطية الغربية اختارت ان تسترضي ألمانيا في العشرينات فربما كان بالإمكان المحافظة على حكومة جمهورية فايمار الديمقراطية، او كانت الولايات المتحدة وقعت على معاهدة فرساي ومكثت في أوروبا للمحافظة على توازن القوى (كما فعلت بعد عام ١٩٤٥) فربما كان هتلر سيصل الى السلطة، او ربما كانت ستقوم بعض الحروب في أوروبا، ولكن ليس بالضرورة حرب عالمية ثانية، وفي الثلاثينات كانت صدمة الركود الإقتصادي وقوداً أجج لهيب الأيديولوجيات ومجد العدوان وجعل اندلاع الحرب اقرب الى الاحتمال من ذي قبل.

لنعمد مبدأ التضاد فنفرض ان بريطانيا وفرنسا واجهتا ألمانيا وعقدتا تحالفاً مع الاتحاد السوفيتي في أوائل الثلاثينات، او نتصور الولايات المتحدة منضمة الى عصبة الأمم، كان هتلر سيردع او يؤخر، وربما لم يكن ليحقق النجاحات المثيرة المبكرة او كان سيطاح به على يد جنرالاته الذين فكروا بمثل هذا الانقلاب مرات عدة، ولكن بما ان هذه الأشياء لم تحدث أصبحت شخصية هتلر وإستراتيجيته الأسباب المعجلة الرئيسية، وما ان بدأ هتلر يخطط للحرب في أواخر الثلاثينات حتى أصبحت الحرب لا مفر منها، ومع ذلك يعتقد بعض المؤرخين لو ان بريطانيا وفرنسا شنتا هجوماً في أيلول (سبتمبر) ١٩٣٩ فربما كانتا هزمتا ألمانيا.

حرب المحيط الهادي :

للحرب في المحيط الهادي مصادره المنفصلة، كانت اليابان مجتمعاً شديداً التمسك بتقاليده وليست له صلة عميقة بما يجري في أوروبا، في العشرينات كانت اليابان شديدة البعد عن الديمقراطية وان كان فيها نظام برلماني، وفي الثلاثينات سيطر العسكريون وغلاة القوميون على الحكم، ولقيت سياستهم الرامية الى التوسع الإمبريالي صدى واسعاً لدى الشعب، فقد كانت اليابان تشكو دائماً حرمانها من الحصول على المواد الخام التي تضطر الى استيرادها.

وحيث ضرب الركود الإقتصادي في الثلاثينات تجارة اليابان خشبي اليابانيون ان يواجهوا مستقبلاً مظلماً إذا لم يغيروا وضعهم، فحاولوا خلق سيادة إقليمية أطلق عليها (القطاع الأكبر لرفاه شرق آسيا المشترك Greater East Asia Co prosperity Sphere – تسمية منمقة بارعة لاحتلال البلدان المجاورة – واعتقد اليابانيون ان هذه الطريقة سنتيح لهم مقاومة تهديدات بريطانيا والولايات المتحدة اللتين كانتا ما تزالان قوتين بحريتين عظيمتين في المحيط الهادي.

في البداية توسعت اليابان على حساب الصين، والحرب الوحشية في الصين وضعت اليابان في صراع دبلوماسي مع الولايات المتحدة التي كانت تدعم الصين، وبعد سقوط فرنسا بيد هتلر استغلت اليابان الفرصة للاستيلاء على مستعمرات فرنسا في جنوب شرقي آسيا أي فيتنام وكمبوديا.

عند هذه النقطة كان أمام التوسعيين اليابانيين ثلاثة خيارات، أحدها ان يوجهوا ضربتهم غرباً الى الاتحاد السوفيتي، ولما كانت هناك اشتباكات بين البلدين على حدود منشوريا ظن البعض بان حرباً يابانية –سوفيتية على طول الحدود المنشورية محتملة الوقوع الى حد كبير، الخيار الثاني ان توجه اليابان ضرباتها الى الجنوب، صحيح ان اليابان استولت على المستعمرات الفرنسية في جنوب شرقي آسيا، إلا ان الجائزة الكبرى هي الهند الشرقية الهولندية (اندونيسيا حالياً) الغنية بالنفط الذي تحتاجه اليابان، أما الخيار الثالث فهو ان تضرب شرقاً باتجاه الولايات المتحدة، وهو اخطر الخيارات إطلاقاً.

اخذ اليابانيون في نهاية الامر، بالخيارين الثاني والثالث، وفي ٧ كانون الأول ١٩٤١ وجهوا ضرباتهم شرقاً الى الولايات المتحدة^(١) وجنوباً الى الفلبين واندونيسيا، ولكن إذا كان التحرك جنوباً طلباً للمواد الأولية فأن الهجوم على الولايات المتحدة يصعب تفسيره، كان اليابانيون يعرفون مدى التفاوت في مصادر القوة بين البلدين ويعرفون انهم غير قادرين في نهاية الامر على

(١) انظر ملحق رقم (١١).

كسب الحرب ضد الولايات المتحدة، لكنهم كانوا يتأملون من وراء هجومهم المباغت على بيرل هاربر ان يضعفوا معنويات الولايات المتحدة، بما يؤدي الى أبعاد إمكانية انفجار حرب واسعة النطاق، وكان ذلك سوء تقدير من جانب اليابانيين، وان كان اشد الخيارات حكمة في نظر الحكومة اليابانية.

بحلول خريف عام ١٩٤١ لم يعد اليابانيون يعتبرون الاتحاد السوفيتي هدفاً، فقد جاء هجوم هتلر على الاتحاد السوفيتي ليزيل التهديد السوفيتي لليابان، وظل البلدان يحتفظان بحياد مصلحة حتى الأسابيع الأخيرة من الحرب، وفي الوقت نفسه حاول الامريكان ردع اليابانيين من ضرب الجنوب بفرض الحظر على شحنات النفط الى اليابان وفي هذا قال الرئيس روزفيلت "ان الولايات المتحدة وضعت الحبل حول رقبة اليابان وتجره بين الحين والحين"، ونقل عن مساعد وزير الخارجية دين اتشيسون قوله يومذاك "ان الهجوم ما كان يؤدي الى حرب إذ لا يمكن لأي ياباني عاقل ان يعتقد بان هجوماً علينا سيؤدي الى أي شيء غير كارثة لبلاد^(١). لكن اليابانيين شعروا بأنهم اذا لم يحاربوا سيكون مصيرهم الهزيمة في النهاية بأية حال. ولما كان ٩٠ بالمائة من نفطهم يستورد فقد وجدوا ان بحريتهم لا تصمد سنة واحدة في احسن الأحوال إذا لم تصلهم شحنات نفط ولذلك فانهم سيخنقون ببطء ان لم يحاربوا.

يضاف الى ذلك ان الولايات المتحدة طلبت من اليابان الانسحاب من الصين، فاعتقد اليابانيون بان هذا سيحرمهم من المنطقة التي يعتبرونها عمقهم الإقتصادي، وقد وصف أحد الضباط الوضع للإمبراطور (هيرو هيتو) بأنه مثل مريض في حالة خطرة "فالعملية على ما فيها من خطورة شديدة تعطي بعض الأمل بإنقاذ حياته"^(٢). فلم يكن دخول الحرب، من وجهة نظر اليابانيين، عملاً غير عقلاني تماماً، بل اقل سوءاً من البدائل المنظورة، فإذا هزمت ألمانيا بريطانيا وثبتت مباغته الهجوم عزيمة الرأي العام الامريكي فقد يكون هناك تفاوض على

(١) سكوت ساكان. جذور الحرب في المحيط الهادي (نيويورك: مطابع جامعة كامبريدج، ١٩٨٩) ص ٣٣٥-٣٣٦.

(٢) المصدر السابق، ص ٣٢٥.

السلام، وفي كلمات نائب رئيس أركان الجيش (تسوكودا) تعبير عن التسبب البائس المزاج للقادة اليابانيين إذ يقول:

”إذا دخلنا الحرب ففرص النجاح عموماً ليست سانحة، كلنا نتساءل ترى هل من وسيلة لمعالجة الأمور سلمياً، فلا أحد يقول: لا تقلقوا انا أتحمّل المسؤولية حتى لو طال أمد الحرب، من ناحية أخرى، لا يمكن المحافظة على الخضوع القائم، ولهذا لا يملك المرء إلا الوصول الى نتيجة ان لا بد لنا ان نحارب“^(١).

كان من الممكن لليابانيين الرجوع عن عدوانهم على الصين وجنوب شرقي آسيا، لكن هذا كان أمراً مستبعداً في نظر قادتها العسكريين، وعلى هذا قام اليابانيون بقصف ميناء بيرل هاربر في ٧ كانون الأول ١٩٤١.

ماذا عن المستويات الثلاثة إذا طبقت على حرب المحيط الهادي؟ ان دور الفرد اضعف بالتأكيد مما هو عليه مع هتلر في أوروبا، ومع ذلك كان لصانعي السياسة كأفراد تأثيرهم على مسار الأحداث، كان الجنرالات وقادة البحر التوسعيون اليابانيون يريدون زيادة هيمنة اليابان الاقليمية وسعوا سعياً محموداً لتوسيع الحرب غرباً نحو الصين وجنوباً الى سنغافورة واندونيسيا والغلبين وشرقاً باتجاه الممتلكات الامريكية في المحيط الهادي، وقام قادة عسكريون، مثل هايدكي توجو بدور كبير في رسم سياسات الحكومة، على ان (توجو) هذا كان يؤيد السياسات المقررة شأنه في ذلك شأن معظم العسكريين الكبار والزعماء السياسيين، بينما كان هتلر يتخذ القرارات بنفسه في معظم الأحيان، وان كان يحظى بدعم العديد من كبار الجنرالات والصناعيين الالمان، ففي اليابان كانت السلطة موزعة على نطاق أوسع وكانت القرارات وليدة مداولات أوسع نطاقاً بين السياسيين وكبار العسكريين.

كذلك كان دور الفرد مهماً في رسم السياسة الامريكية، كان فرانكلين روزفيلت راغباً في فرض عقوبات إقتصادية تأديبية على اليابانيين بسبب عدوانهم على جنوب شرقي آسيا، لكن كثيرين

(١) سكوت ساكا، ”الردع والقرار: دراسة نقدية في نظريات الردع الحديثة“ اطروحة دكتوراه في جامعة هارفرد عام ١٩٨٣، ص

من أعضاء الكونغرس والناس في طول البلاد وعرضها كانوا غير مرتاحين لسياسة روزفيلت الداعية الى الفاعلية والمواجهة، ذلك لان الميل لسياسة العزلة كان ما يزال قوياً بالولايات المتحدة في عامي ١٩٤٠ و١٩٤١، والعديد من الناس يرفضون اشتراك الولايات المتحدة بالشؤون الدولية، ولو كان احد مثل السيناتور بيرتن ويلر من ولاية مونتانا او (حيرام جونسف) من كاليفورنيا رئيساً لكانت الولايات المتحدة خرجت بتبرير لعدوان اليابان بدلاً من التصدي له وترتب على هذا ان انتفت حاجة اليابان للهجوم على الولايات المتحدة أصلاً، في هذه الحالة كان العدوان الياباني سيمضي دون ردع طبعاً وتكرس اليابان وجودها كقوة عظيمة في غربي المحيط الهادي.

أما من حيث الأسباب المتعلقة بالنظام الداخلي فقد جعل ازدياد الروح العسكرية في الحكومة اليابانية احتمال قيام حرب اشد من ذي قبل، واثرا لانهيار الإقتصاد في اليابان والولايات المتحدة في سياسة البلدين الخارجية، كما فعل مع أوروبا في الثلاثينات فأصبحت اليابان اشد ميلاً الى سياسة التوسع في حين ظلت الولايات المتحدة، حتى عام ١٩٤٠، اشد ميلاً للعزلة، يضاف الى ذلك ان الفوضى الداخلية التي عمت الصين الوطنية في الثلاثينيات جعلت البلاد اشد عرضة للتوسع الياباني، الذي زاد بدوره من نفوذ الأوساط العسكرية في الحكومة اليابانية وسياساتها الداخلية.

لم تخدم معاهدة فرساي، على مستوى النظام، مطامع اليابان في الصين، ثم جاءت مشاكل الثلاثينات الإقتصادية لتزيد بصعوبة حصول اليابان على المواد الخام التي تحتاجها عن طريق التجارة وحدها، وجاء انهيار نظام الأمن الجماعي لعصبة الأمم في آسيا، بين عامي ١٩٣١ و١٩٣٣ ليزيل كوابح مؤسساتية من طريق المطامع الإمبريالية اليابانية، ان الأسباب العميقة والمباشرة لحرب المحيط الهادي تختلف عن الحرب في أوروبا من حيث إنها داخلية الى حد كبير - التحول الى التوسع في اليابان والى المزيد من سياسة العزلة في الولايات المتحدة، وفوضى الأوضاع بالصين في الثلاثينات.

أما الأسباب المعجلة فكانت قرار الرئيس روزفيلت بتنفيذ حظر تام في تموز ١٩٤١ وما نتج عنه من عزم العسكريين اليابانيين على مهاجمة الولايات المتحدة في ٧ كانون الأول في العام نفسه^(١).

استرضاء وطرازان من الحرب:

ما هي الدروس والعبر التي نستخلصها من هذا؟ البعض يقول ان الدرس الاساس في فترة الثلاثينات هو شروور (الاسترضاء) لكن الاسترضاء ليس شيئاً بحد ذاته، انه وسيلة دبلوماسية قديمة - كلاسيكية - وهو خيار سياسي يتيح تغييرات في ميزان القوى تفيد دولة منافسة او غريمة، فبدلاً من محاولة ردع دولة معادية او احتوائها تقرر دولة ان من الأفضل السماح للدولة المعادية ببعض المكاسب المتواضعة. فعشية الحرب البيلوبونيزية حثت كورنث أثينا على وجوب السماح بابتلاع كورسايرا، لكن أهل أثينا رفضوا استرضاء كورنث واختاروا القتال، فإذا أخذنا النتائج بالحساب وجدنا انه من الأفضل لأثينا ان تلي طلباً فتسمح بابتلاع كورسايرا، لكن أثينا رفضت إرضاء كورنث واختارت الحرب بدلاً من ذلك، فإذا نظرنا الى النتائج وجدنا انه كان الأفضل لأثينا ان ترضي مطامع كورنث بدلاً من تحديها بشأن كورسايرا.

لقد وضعت سياسة الاسترضاء بنجاح عام ١٨١٥ في استرضاء الحلفاء المنتصرين لفرنسا المهزومة، وفي تسعينات القرن التاسع عشر استرضت بريطانيا الولايات المتحدة. بل نستطيع القول ان سياسة الاسترضاء كانت ستكون السياسة الصائبة التي يتوجب على الحلفاء اتباعها تجاه ألمانيا في فترة العشرينات في حين لجأوا الى هذه السياسة في الثلاثينات يوم كان من المفروض ان يتصدوا لألمانيا.

كانت الترضية مقاربة مغلوطة من هتلر، لأن رئيس الوزراء البريطاني (نيفيل تشمبرلن) لم يكن شخصاً جباناً كما صورته تجربة ميونيخ، لقد أراد تجنب حرب عالمية أخرى، فقد قال في تموز (يوليو) ١٩٣٨:

(١) انظر ملحق رقم (١١).

”حين أفكر بتلك السنوات الأربع الرهيبة وأفكر بالملايين السبعة من الشباب الذين أزهقت ارواحهم وهم في ريعان الصبا والملايين الثلاثة عشر من البشر الذين عوقوا وبترت أطرافهم وبؤس الآباء والأمهات والأبناء والبنات يجب عليّ ان اقول بأن لا يوجد هناك رابح حقيقي في الحرب، بل كلنا خاسرون في النهاية وهذا ما جعلني اعتقد بان مهمتنا الرئيسية في هذه الحياة عدم تكرار حرب عالمية أخرى في أوروبا وحتى عدم فسخ المجال امام الحروب الاقليمية والداخلية أيضاً“^(١).

(١) نيفيل تشمبرلن، بحث عن السلام: الكلمات ١٩٣٧ - ١٩٣٨ (لندن: هاتجينسون) ص ٥٩.